۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾

(قَالَ ٱلْمَلَأُ)الأشراف و الكبراء(ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟)و اتبعوا أهواءهم و لهوا بلذاتهم(مِن قَوْمِهِۦ)

فلما أتاهم الحق و رأوه غير موافق لأهوائهم الرديئة ردوه و استكبروا عنه فقالوا لنبيهم شعيب و من معه من

المؤمنين المستضعفين:–(لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ) لنخرجنكم من قريتنا

استعملوا قوتهم السبعية فى مقابلة الحق و لم يراعوا دينا و لا ذمة و لا حقا

و إنما راعوا و اتبعوا أهواءهم و عقولهم السفيهة التى دلتهم على هذا القول الفاسد

فـــــ(شعيب)عليه السلام كان يدعوهم طامعا في إيمانهم و الآن لم يسلم من شرهم حتى توعدوه إن لم يتابعهم –

بالجلاء عن وطنه الذي هو و من معه أحق به منهم.

(أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ)إما أن ترجع أنت و من معك إلى ديننا

فـــ(قَالَ)لهم شعيب عليه السلام متعجبا من قولهم:–

(أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ)أى:أنتابعكم على دينكم و ملتكم الباطلة و لو كنا كارهين لها لعلمنا ببطلانها

فإنما يدعى إليها من له نوع رغبة فيها أما من يعلن بالنهى عنها و التشنيع على من اتبعها فكيف يدعى إليها؟88

(قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ)

أى:اشهدوا علينا أننا إن عدنا إليها بعد ما نجانا اللّه منها و أنقذنا من شرها أننا كاذبون مفترون على اللّه الكذب

فإننا نعلم أنه لا أعظم افتراء ممن جعل للّه شريكا و هو الواحد الأحد الفرد الصمد

الذي لم يتخذ ولدا و لا صاحبة و لا شريكا فى الملك.

(وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ)يمتنع على مثلنا أن نعود فيها فإن هذا من المحال

فآيسهم عليه السلام من كونه يوافقهم من وجوه متعددة:-

1-من جهة أنهم كارهون لها مبغضون لما هم عليه من الشرك.

2-و من جهة أنه جعل ما هم عليه كذبا و أشهدهم أنه إن اتبعهم و من معه فإنهم كاذبون.

3-اعترافهم بمنة اللّه عليهم إذ أنقذهم اللّه منها.

4-أن عودهم فيها-بعد ما هداهم اللّه-من المحالات بالنظر إلى حالتهم الراهنة و ما فى قلوبهم من تعظيم اللّه تعالى و الاعتراف له بالعبودية و أنه الإله وحده الذى لا تنبغى العبادة إلا له وحده لا شريك له و أن آلهة المشركين أبطل الباطل و أمحل المحال.

و حيث إن اللّه منَّ عليهم بعقول يعرفون بها:-الحق و الباطل و الهدى و الضلال.

و أما من حيث النظر إلى مشيئة اللّه و إرادته النافذة فى خلقه التى لا خروج لأحد عنها و لو تواترت الأسباب و توافقت القوى فإنهم لا يحكمون على أنفسهم أنهم سيفعلون شيئا أو يتركونه و لهذا استثنى:-

(وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ)أى:فلا يمكننا و لا غيرنا الخروج عن مشيئته التابعة لعلمه و حكمته

و قد(وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ)فيعلم ما يصلح للعباد و ما يدبرهم عليه.

(عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَاۚ)اعتمدنا أنه سيثبتنا على الصراط المستقيم و أن يعصمنا من جميع طرق الجحيم

فإن من توكل على اللّه كفاه و يسر له أمر دينه و دنياه.

(رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ)أى:انصر المظلوم و صاحب الحق على الظالم المعاند للحق

(وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ)الحاكمين فإنه العادل الذى لا يجور أبدا و فتحه تعالى لعباده نوعان:-

1-فتح العلم بتبيين الحق من الباطل و الهدى من الضلال و من هو من المستقيمين على الصراط ممن هو منحرف عنه.

2-فتحه بالجزاء و إيقاع العقوبة على الظالمين و النجاة و الإكرام للصالحين

فسألوا اللّه أن يفتح بينهم و بين قومهم بالحق و العدل و أن يريهم من آياته ما يكون فاصلا بين الفريقين89

(وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ)محذرين عن اتباع شعيب إمعانًا فى العتوِّ و التمرد

(لَئِنِ ٱتَّبَعۡتُمۡ شُعَيۡبًا إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ)هذا ما سولت لهم أنفسهم أن الخسارة و الشقاء فى اتباع الرشد و الهدى

و لم يدروا أن الخسارة كل الخسارة فى لزوم ما هم عليه من:-الضلال و الإضلال

و قد علموا ذلك حين وقع بهم النكال90

(فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ)الزلزلة الشديدة

*أَخْبَرَ تَعَالَى هَاهُنَا أَنَّهُمْ أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ كَمَا أَرْجَفُوا شُعَيْبًا وَ أَصْحَابَهُ وَ تَوَعَّدُوهُمْ بِالْجَلَاءِ كَمَا أَخْبَرَ عَنْهُمْ فِي سُورَةِ "هُودٍ" فَقَالَ:-

{وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ}[هُودٍ:94]

وَ الْمُنَاسَبَةُ فِي ذَلِكَ-وَ اللَّهُ أَعْلَمُ-أَنَّهُمْ لَمَّا تَهَكَّمُوا بِنَبِيِّ اللَّهِ شُعَيْبٍ فِي قَوْلِهِمْ:-

{أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ}[هُودٍ: 87]

فَجَاءَتِ الصَّيْحَةُ فَأَسْكَتَتْهُمْ.

وَ قَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْهُمْ فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ:{فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ}[الشُّعَرَاءِ:189]

وَ مَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّهُمْ قَالُوا لَهُ فِي سِيَاقِ الْقِصَّةِ:-{فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ}[الشُّعَرَاءِ:187]

فَأَخْبَرَ أَنَّهُ أَصَابَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ وَ قَدِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ كُلُّهُ:

1-أَصَابَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ وَ هِيَ سَحَابَةٌ أَظَلَّتْهُمْ فِيهَا شَرَرٌ مِنْ نَارٍ و لَهَب و وهَج عَظِيمٍ

2-ثُمَّ جَاءَتْهُمْ صَيْحَةٌ مِنَ السَّمَاءِ

3-وَ رَجْفَةٌ مِنَ الْأَرْضِ شَدِيدَةٌ مِنْ أَسْفَلَ مِنْهُمْ فَزَهَقَتِ الْأَرْوَاحُ وَ فَاضَتِ النُّفُوسُ وَ خَمَدَتِ الْأَجْسَادُ

(فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ)صرعى ميتين هامدين لاصقين بالأرض على رُكَبهم و وجوههم91

*قال تعالى ناعيا حالهم(ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۚ)كأنهم ما أقاموا فى ديارهم

و كأنهم ما تمتعوا في عرصاتها و لا تفيئوا فى ظلالها و لا غنوا فى مسارح أنهارها و لا أكلوا من ثمار أشجارها

حين فاجأهم العذاب فنقلهم من مورد اللهو و اللعب و اللذات إلي:–

مستقر الحزن و الشقاء و العقاب و الدركات (ليس معناها يغتنوا و تكثر أموالهم)

و لهذا قال:–(ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ)

الخسار محصور فيهم لأنهم خسروا دينهم و أنفسهم و أهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين لا من

قالوا لهم:-(لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ) 92

فحين هلكوا تولى عنهم نبيهم شعيب ﷺ وَ قَالَ معاتبا و موبخا و مخاطبا بعد موتهم:–

(فَتَوَلَّىٰ)فأعرض شعيب(عَنۡهُمۡ)حينما أيقن بحلول العذاب بهم

(وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي)

أى:أوصلتها إليكم و بينتها حتى بلغت منكم أقصى ما يمكن أن تصل إليه و خالطت أفئدتكم

(وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ)بالدخول فى دين الله و الإقلاع عما أنتم عليه فلم تقبلوا نصحى و لا انقدتم لإرشادى بل فسقتم و طغيتم.

(فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ)أحزن(عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ)جحدوا وحدانية الله و كذبوا رسله لا خير فيهم ؟أتاهم الخير فـ:-

1-ردوه 2-و لم يقبلوه و لا يليق بهم إلا الشر

فهؤلاء غير حقيقين أن يحزن عليهم بل يفرح بإهلاكهم و محقهم.

فعياذا بك اللهم من الخزى و الفضيحة و أى شقاء و عقوبة أبلغ من أن يصلوا إلى حالة يتبرأ منهم أنصح الخلق لهم؟ 93

(وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ)يدعوهم إلى عبادة اللّه و ينهاهم عن ما هم فيه من الشر فلم ينقادوا له:

(إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا)إلا ابتلاهم الله (بِٱلۡبَأۡسَآءِ)بالفقر أو بالحاجة

(وَٱلضَّرَّآءِ)المرض و أنواع البلايا

(لَعَلَّهُمۡ)رجاء(يَضَّرَّعُونَ)يخضعون و يستكينوا و ينيبوا إلى الله و يرجعوا إلى الحق94

(ثُمَّ)إذا لم يفد فيهم و استمر استكبارهم و ازداد طغيانهم فقلب عليهم الحال ليختبرهم فيه

(بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ)بدّلنا الحالة الطيبة الأولى مكان الحالة السيئة فَأدَرَّ عليهم الأرزاق و عافى أبدانهم و رفع عنهم البلاء

(حَتَّىٰ عَفَواْ)كثروا و كثرت أرزاقهم و انبسطوا في نعمة اللّه و فضله و نسوا ما مر عليهم من البلاء.

(ليس "عفوا" من العفو و التجاوز و المغفرة)

(وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ)أى:هذه عادة جارية لم تزل موجودة في الأولين و اللاحقين

تارة يكونون فى:- سراء و تارة فى ضراء و تارة فى فرح و مرة فى ترح

على حسب تقلبات الزمان و تداول الأيام و حسبوا أنها ليست للموعظة و التذكير و لا للاستدراج و النكير

حتى إذا اغتبطوا و فرحوا بما أوتوا و كانت الدنيا أسر ما كانت إليهم

(فَأَخَذۡنَٰهُم)بالعذاب(بَغۡتَةٗ)فجأة(وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ)و هم آمنون لا يخطر لهم الهلاك على بال و ظنوا أنهم قادرون على ما آتاهم الله و أنهم غير زائلين و لا منتقلين عنه.

ابْتَلَاهُمْ بِهَذَا وَ هَذَا لِيَتَضَرَّعُوا و يُنيبوا إِلَى اللَّهِ فَمَا نَجع فِيهِمْ لَا هَذَا وَ لَا هَذَا وَ لَا انْتَهَوْا بِهَذَا وَ لَا بِهَذَا

بَلْ قَالُوا: قَدْ مَسَّنَا مِنَ الْبَأْسَاءِ وَ الضَّرَّاءِ ثُمَّ بَعْدَهُ مِنَ الرَّخَاءِ مِثْلُ مَا أَصَابَ آبَاءَنَا فِي قَدِيمِ الدَّهْرِ

وَ إِنَّمَا هُوَ الدَّهْرُ تَارَاتٌ وَ تَارَاتٌ وَ لَمْ يَتَفَطَّنُوا لِأَمْرِ اللَّهِ فِيهِمْ وَ لَا اسْتَشْعَرُوا ابْتِلَاءَ اللَّهِ لَهُمْ فِي الْحَالَيْنِ.

*وَ هَذَا بِخِلَافِ حَالِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَشْكُرُونَ اللَّهَ عَلَى السَّرَّاءِ وَ يَصْبِرُونَ عَلَى الضَّرَّاءِ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ:

*مسلم (2999) عَنْ صُهَيْبٍ رضي الله عنه قَالَ:-قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:-

«عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَ لَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَ إِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»95

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾

*لما ذكر تعالى أن المكذبين للرسل يبتلون بالضراء موعظة و إنذارا و بالسراء استدراجا و مكرا ذكر:-

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟)لو آمنوا بقلوبهم إيمانا صادقا صدقته الأعمال

(وَٱتَّقَوْا۟)و استعملوا تقوى اللّه تعالى ظاهرا و باطنا بترك جميع ما حرم اللّه

(لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ)لفتح عليهم بركات السماء و الأرض فأرسل السماء عليهم مدرارا و أنبت لهم من الأرض ما به يعيشون و تعيش بهائمهم فى أخصب عيش و أغزر رزق من غير عناء و لا تعب و لا كد و لا نصب(وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟)و لكنهم لم يؤمنوا و يتقوا

(فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ)بالعقوبات و البلايا و نزع البركات و كثرة الآفات و هى بعض جزاء أعمالهم و إلا فلو آخذهم بجميع ما كسبوا ما ترك عليها من دابة

(ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)الروم: ٤١ 96

(أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ)أى:المكذبة بقرينة السياق

(أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا)عذابنا الشديد(بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ)ليلا-أى: فى غفلتهم و غرتهم و راحتهم97

(أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ)غافلون متشاغلون بأمور دنياهم

*أى:أى شيء يؤمنهم من ذلك و هم قد فعلوا أسبابه و ارتكبوا من الجرائم العظيمة ما يوجب بعضه الهلاك؟98

(أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ)حيث يستدرجهم من حيث لا يعلمون و يملى لهم إن كيده متين

(فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ)

فإن من أَمِنَ من عذاب اللّه فهو لم يصدق بالجزاء على الأعمال و لا آمن بالرسل حقيقة الإيمان.

و هذه الآية الكريمة فيها من التخويف البليغ:–على أن العبد لا ينبغى له أن يكون آمنا على ما معه من الإيمان.

بل لا يزال خائفا وجلا أن يبتلى ببلية تسلب ما معه من الإيمان و أن لا يزال داعيا بقوله:–

(يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك)و أن يعمل و يسعى فى كل سبب يخلصه من الشر عند وقوع الفتن

فإن العبد–و لو بلغت به الحال ما بلغت– فليس على يقين من السلامة.

*قَالَ الْحَسَنُ:-الْمُؤْمِنُ يَعْمَلُ بِالطَّاعَاتِ وَ هُوَ مُشْفِق وَجِل خَائِفٌ وَ الْفَاجِرُ يَعْمَلُ بِالْمَعَاصِي وَ هُوَ آمِنٌ99

*يقول تعالى منبها للأمم الغابرين بعد هلاك الأمم الغابرين(أَوَلَمۡ يَهۡدِ)يتبين و يتضح

(لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡأَرۡضَ)من الأمم(مِنۢ بَعۡدِ)بعد إهلاك(أَهۡلِهَآ)ممن سبقوهم بذنوبهم ثم عملوا كأعمال أولئك المهلكين؟

أو لم يهتدوا(أَن)الله(لَّوۡ نَشَآءُ)يشاء(أَصَبۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡۚ)فإن هذه سنته فى الأولين والآخرين

(وَنَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ)أى:–إذا نبههم اللّه فلم ينتبهوا و ذكرهم فلم يتذكروا

و هداهم بالآيات و العبر فلم يهتدوا فإن اللّه تعالى يعاقبهم و يطبع على قلوبهم

فيعلوها الران و الدنس حتى يختم عليها فلا يدخلها حق و لا يصل إليها خير و لا يسمعون ما ينفعهم

و إنما يسمعون ما به تقوم الحجة عليهم100

(تِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰ)الذين تقدم ذكرهم

(نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآئِهَاۚ)أخبارها ما يحصل به عبرة للمعتبرين و ازدجار للظالمين و موعظة للمتقين.

(وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ)أى:–هؤلاء المكذبين(رُسُلُهُم)تدعوهم إلى ما فيه سعادتهم و أيدهم اللّه

(بِٱلۡبَيِّنَٰتِ)بالمعجزات الظاهرة والبينات المبينات للحق بيانا كاملا و لكنهم لم يفدهم هذا و لا أغنى عنهم شيئا

(فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبۡلُۚ)

أى:بسبب تكذيبهم و ردهم الحق أول مرة ما كان الله ليهديهم للإيمان جزاء لهم على ردهم الحق

كما قال تعالى:(وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ)الأنعام: ١١٠

(كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡكَٰفِرِينَ)عقوبة منه.و ما ظلمهم اللّه و لكنهم ظلموا أنفسهم101

(وَمَا وَجَدۡنَا لِأَكۡثَرِهِم)أى:و ما وجدنا لأكثر الأمم الذين أرسل اللّه إليهم الرسل

(مِّنۡ عَهۡدٖۖ)

ثبات و التزام لوصية اللّه التى أوصى بها جميع العالمين و لا انقادوا لأوامره التى ساقها إليهم على ألسنة رسله.

(وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ)لخارجين عن طاعة اللّه متبعين لأهوائهم بغير هدى من اللّه

*فاللّه تعالى امتحن العباد بإرسال الرسل و إنزال الكتب و أمرهم باتباع عهده و هداه فلم يمتثل لأمره إلا القليل من الناس الذين سبقت لهم من اللّه سابقة السعادة.

و أما أكثر الخلق فأعرضوا عن الهدى و استكبروا عما جاءت به الرسل فأحل اللّه بهم من عقوباته المتنوعة ما أحل102

قصة موسى 103-136

(ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم)من بعد أولئك الرسل (مُّوسَىٰ)الكليم الإمام العظيم و الرسول الكريم

(بِـَٔايَٰتِنَآ)العظيمة ما لم يشاهد له نظير(إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ)من أشرافهم و كبرائهم

(فَظَلَمُواْ بِهَا)بأن لم ينقادوا لحقها الذى من لم ينقد له فهو ظالم بل استكبروا عنها و جحدوا و كفروا بها ظلما منهم و عنادا

(فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ)

كيف أهلكهم اللّه و أتبعهم الذم و اللعنة فى الدنيا و يوم القيامة بئس الرفد المرفود103

و هذا مجمل فصله بقوله:-(وَقَالَ مُوسَىٰ)يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ مُنَاظَرَةِ مُوسَى لِفِرْعَوْنَ وَ إِلْجَامِهِ إِيَّاهُ بِالْحُجَّةِ وَ إِظْهَارِهِ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ بِحَضْرَةِ فِرْعَوْنَ وَ قَوْمِهِ مِنْ قِبْطِ مِصْرَ حين جاء إلى فرعون يدعوه إلى الإيمان

(يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ)مرسل(مِّن رَّبِّ)عظيم و هو رب(ٱلْعَٰلَمِينَ)الشامل للعالم العلوى و السفلى مربى جميع خلقه بأنواع التدابير الإلهية التي من جملتها أنه لا يتركهم سدى بل يرسل إليهم الرسل مبشرين و منذرين

و هو الذى لا يقدر أحد أن يتجرأ عليه و يدعى أنه أرسله و لم يرسله.

*فإذا كان هذا شأنه و أنا قد اختارنى و اصطفانى لرسالته

فحقيق على أن لا أكذب عليه و لا أقول عليه إلا الحق.

فإني لو قلت غير ذلك لعاجلنى بالعقوبة و أخذنى أخذ عزيز مقتدر.

*فهذا موجب لأن ينقادوا له و يتبعوه خصوصا و قد جاءهم ببينة من اللّه واضحة على صحة ما جاء به من الحق فوجب عليهم أن يعملوا بمقصود رسالته

و لها مقصودان عظيمان:-

1-إيمانهم به2-و اتباعهم له

و إرسال بنى إسرائيل الشعب الذى فضله اللّه على العالمين أولاد الأنبياء و سلسلة يعقوب عليه السلام الذى موسى عليه السلام واحد منهم104

حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَرۡسِلۡ مَعِيَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئۡتَ بِـَٔايَةٖ فَأۡتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُمۡۖ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلۡقُواْۖ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ ﴿١١٦﴾ ۞وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾

(حَقِيقٌ)جَدِيرٌ بِي وَ حَرِيٌّ بِهِ(عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ)

(قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ)بِحُجَّةٍ قَاطِعَةٍ مِنَ اللَّهِ أَعْطَانِيهَا دَلِيلًا عَلَى صِدْقِي فِيمَا جِئْتُكُمْ بِهِ

(فَأَرۡسِلۡ مَعِيَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ)أَيْ: أَطْلِقْهُمْ مِنْ أَسْرِك وَ قَهْرِكَ وَ دَعْهُمْ وَ عِبَادَةَ رَبِّكَ وَ رَبِّهِمْ فَإِنَّهُمْ مِنْ سُلَالَةِ نَبِيٍّ كَرِيمٍ إِسْرَائِيلَ وَ هُوَ: يَعْقُوبُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ الرَّحْمَنِ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتُ الرَّحْمَنِ105

(قَالَ)له فرعون:-(إِن كُنتَ جِئۡتَ بِـَٔايَةٖ فَأۡتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ)106

(فَأَلۡقَىٰ)موسى(عَصَاهُ)في الأرض(فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ)حية ظاهرة تسعى و هم يشاهدونها107

(وَنَزَعَ يَدَهُۥ)من جيبه(فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ)من غير سوء

فهاتان آيتان كبيرتان دالتان على صحة ما جاء به موسى و صدقه و أنه رسول رب العالمين و لكن الذين لا يؤمنون لو جاءتهم كل آية لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم.كقوله(وَأَدۡخِلۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ)النمل108

فلهذا(قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ)حين بهرهم ما رأوا من الآيات و لم يؤمنوا و طلبوا لها التأويلات الفاسدة:

*قَالَ الْمَلَأُ-وَ هُمُ الْجُمْهُورُ وَ السَّادَةُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ-مُوَافِقِينَ لِقَوْلِ فِرْعَوْنَ فِيهِ بَعْدَ مَا رَجَعَ إِلَيْهِ رَوْعه وَ اسْتَقَرَّ عَلَى سَرِيرِ مَمْلَكَتِهِ بَعْدَ ذَلِكَ

قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ:-(إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ)أي: ماهر في سحره. ثم خوفوا ضعفاء الأحلام و سفهاء العقول109

فَوَافَقُوهُ وَ قَالُوا كَمَقَالَتِهِ بأنه(يُرِيدُ)موسى بفعله هذا(أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُمۡۖ)أي: يريد أن يجليكم عن أوطانكم

(فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ)أي: إنهم تشاوروا فيما بينهم ما يفعلون بموسى و ما يندفع به ضرره بزعمهم عنهم

فإن ما جاء به إن لم يقابل بما يبطله و يدحضه و إلا دخل في عقول أكثر الناس110

فحينئذ انعقد رأيهم إلى أن(قَالُوٓاْ)لفرعون:–(أَرۡجِهۡ)أَخِّر و احبس و أمهل(وَأَخَاهُ)

(وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ)و ابعث في المدائن أناسا يحشرون أهل المملكة111

(يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ)و يأتون بكل سحار عليم أى: يجيئون بالسحرة المهرة ليقابلوا ما جاء به موسى

(قَالَ أَجِئۡتَنَا لِتُخۡرِجَنَا مِنۡ أَرۡضِنَا بِسِحۡرِكَ يَٰمُوسَىٰ ٥٧ فَلَنَأۡتِيَنَّكَ بِسِحۡرٖ مِّثۡلِهِۦ فَٱجۡعَلۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكَ مَوۡعِدٗا لَّا نُخۡلِفُهُۥ نَحۡنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانٗا سُوٗى ٥٨ قَالَ مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحٗى ٥٩ فَتَوَلَّىٰ فِرۡعَوۡنُ فَجَمَعَ كَيۡدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ)طه112

و قال هنا:–(وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ)طالبين منه الجزاء إن غلبوا

فــــــ(قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ)؟113

فــ(قَالَ)فرعون:–(نَعَمۡ)لكم أجر(وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ)

فوعدهم الأجر و التقريب و علو المنزلة عنده ليجتهدوا و يبذلوا وسعهم و طاقتهم في مغالبة موسى114

فلما حضروا مع موسى بحضرة الخلق العظيم(قَالُوٓاْ)على وجه التألي و عدم المبالاة بما جاء به موسى:–

(يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ)ما معك

(وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ)أَيْ: قَبْلك. كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى:-{وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى} [طه:65]115

فــ(قَالَ)موسى:–(أَلۡقُوٓاْ)لأجل أن يرى الناس ما معهم و ما مع موسى.

*وَ الْحِكْمَةُ فِي هَذَا -وَ اللَّهُ أَعْلَمُ -لِيَرَى النَّاسُ صَنِيعَهُمْ وَ يَتَأَمَّلُوهُ فَإِذَا فُرغ مِنْ بَهْرَجِهِمْ وَ مُحَالِهِمْ جَاءَهُمُ الْحَقُّ الْوَاضِحُ الْجَلِيُّ بَعْدَ تَطَلُّبٍ لَهُ وَ الِانْتِظَارِ مِنْهُمْ لِمَجِيئِهِ فَيَكُونَ أَوْقَعَ فِي النُّفُوسِ.وَ كَذَا كَانَ.

(فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ)حبالهم و عصيهم إذا هي من سحرهم كأنها حيات تسعى

فــــــ(سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ) لم يوجد له نظير من السحر.

(وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ)أرهبوا الناس إرهابًا شديدًا

(وَجَآءُو بِسِحۡرٍ)قوى(عَظِيمٖ)كثير

*أَيْ: خَيَّلُوا إِلَى الْأَبْصَارِ أَنَّ مَا فَعَلُوهُ لَهُ حَقِيقَةٌ فِي الْخَارِجِ وَ لَمْ يَكُنْ إِلَّا مُجَرَّدَ صَنْعَةٍ وَ خَيَالٍ

*كَمَا قَالَ تَعَالَى:{فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى66 فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى67 قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى68 وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى}[طه]116

(وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ)حية تسعى

فـ(تَلۡقَفُ)تأكل جميع(مَا يَأۡفِكُونَ)يكذبون به و يموهون117

(فَوَقَعَ)تبين و ظهر(ٱلۡحَقُّ)و استعلن فى ذلك المجمع

(وَبَطَلَ)الكذب(مَا)الذى(كَانُواْ يَعۡمَلُونَ)ــــــــه

(فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ)فى ذلك المقام(وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ)حقيرين قد اضمحل باطلهم و تلاشى سحرهم و لم يحصل لهم المقصود الذى ظنوا حصوله.

*و أعظم من تبين له الحق العظيم أهل الصنف و السحر الذين يعرفون من أنواع السحر و جزئياته ما لا يعرفه غيرهم فعرفوا أن هذه آية عظيمة من آيات اللّه لا يدان لأحد بها.

*قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَجَعَلَتْ لَا تَمُرّ بِشَيْءٍ مِنْ حِبَالِهِمْ وَ لَا مِنْ خُشُبهم إِلَّا الْتَقَمَتْهُ فَعَرَفَتِ السَّحَرَةُ أَنَّ هَذَا أَمْرٌ مِنَ السَّمَاءِ وَ لَيْسَ هَذَا بِسِحْرٍ فَخَرُّوا سُجَّدًا119

وَ قَالُوا:–(وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ)120

قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ
إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ
ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا
لَمَّا جَآءَتۡنَاۚ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ
لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾
قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ
وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ
أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴿١٢٩﴾
وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾

(قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ)أي:–و صدقنا بما بعث به موسى من الآيات البينات 122

فـــ(قَالَ)لَهُمْ(فِرۡعَوۡنُ)متهددا على الإيمان:–(ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ)فهذا سوء أدب منكم و تجرؤ عَلَيَّ
كان الخبيث حاكما مستبدا على الأبدان و الأقوال قد تقرر عنده و عندهم أن قوله هو المطاع و أمره نافذ
فيهم و لا خروج لأحد عن قوله و حكمه

*وبهذه الحالة تنحط الأمم و تضعف عقولها و نفوذها و تعجز عن المدافعة عن حقوقها و لهذا قال اللّه عنه:–

(فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ) الزخرف: ٥٤

*ثم موه على قومه و قال:– (إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ)

*كقوله (قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ)طه: ٧١ أي:–إن موسى كبيركم الذى علمكم السحر
فتواطأتم أنتم و هو على أن تنغلبوا له فيظهر فتتبعوه ثم يتبعكم الناس أو جمهورهم فتخرجوا منها أهلها.
و هذا كذب يعلم هو و من سبر الأحوال أن موسى عليه السلام لم يجتمع بأحد منهم و أنهم جمعوا على نظر فرعون
و رسله و أن ما جاء به موسى آية إلهية و أن السحرة قد بذلوا مجهودهم فى مغالبة موسى حتى عجزوا و تبين
لهم الحق فاتبعوه.ثم توعدهم فرعون بقوله:–

(فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ)ما أُحِلُ بكم من العقوبة 123

(لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ)زعم الخبيث أنهم مفسدون فى الأرض

و سيصنع بهم ما يصنع بالمفسدين من تقطيع الأيدى و الأرجل من خلاف أى: اليد اليمنى و الرجل اليسرى.

(ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ)على جذوع النخل لتختنزوا بزعمه(أَجْمَعِينَ)أى:-لا أفعل هذا الفعل بأحد دون أحد

بل كلكم سيذوق هذا العذاب. فقال السحرة الذين آمنوا لفرعون حين تهددهم124

(قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ)أى:فلا نبالى بعقوبتك فاللّه خير و أبقى فاقض ما أنت قاض.

*قَدْ تَحَقَّقْنَا أَنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ وَ عَذَابُهُ أَشَدُّ مِنْ عَذَابِكَ وَ نَكَالُهُ مَا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَ مَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ أَعْظَمُ مِنْ نَكَالِكَ فَلَنَصْبِرَنَّ الْيَوْمَ عَلَى عَذَابِكَ لِنَخْلُصَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ125

(وَمَا تَنقِمُ)تعيب(مِنَّآ)على إنكارك علينا و توعدك لنا ؟ فليس لنا ذنب

(إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَاۚ)فإن كان هذا ذنبا يعاب عليه و يستحق صاحب العقوبة فهو ذنبنا.

ثم دعوا اللّه أن يثبتهم و يصبرهم فقالوا:-

(رَبَّنَآ أَفْرِغْ)أفض-عُمَّ(عَلَيْنَا صَبْرًا)بِالصَّبْرِ عَلَى دِينِكَ وَ الثَّبَاتِ عَلَيْهِ عظيما ((كما يدل عليه التنكير)):-

لأن هذه محنة عظيمة تؤدى إلى ذهاب النفس

فيحتاج فيها من الصبر إلى شيء كثير لــــــ:-

1-يثبت الفؤاد 2-و يطمئن المؤمن على إيمانه 3- و يزول عنه الانزعاج الكثير.

(وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ)مُتَابِعِينَ لِنَبِيِّكَ مُوسَى عليه السلام منقادين لأمرك متبعين لرسولك

*و الظاهر أنه أوقع بهم ما توعدهم عليه و أن اللّه تعالى ثبتهم على الإيمان.

هذا و فرعون و ملؤه وعامتهم المتبعون للملأ قد استكبروا عن آيات اللّه و جحدوا بها ظلما و علوا

وَ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ:-{فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا72 إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى73 إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى74 وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَا} [طه]

*فَكَانُوا فِي أَوَّلِ النَّهَارِ سَحَرَةً فَصَارُوا فِي آخِرِهِ شُهَدَاءَ بَرَرَةً126

(وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ)و قالوا لفرعون مهيجين له على الإيقاع بموسى و زاعمين أن ما جاء باطل و فساد:

(أَتَذَرُ)أَتَدَع(مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ)أَيْ:يُفْسِدُوا أَهْلَ رَعِيَّتِكَ وَ يَدْعُوهُمْ إِلَى عِبَادَةِ رَبِّهِمْ دُونَكَ

يَالَلَّهِ لِلْعَجَبِ!صَارَ هَؤُلَاءِ يُشْفِقُونَ مِنْ إِفْسَادِ مُوسَى وَ قَوْمِهِ!

أَلَا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَ قَوْمَهُ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَ لَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ

و هل الدعوة إلى اللّه و إلى مكارم الأخلاق و محاسن الأعمال التى هى الصلاح فى الأرض و ما هم عليه هو الفساد ؟

و لكن الظالمين لا يبالون بما يقولون.

(وَيَذَرَكَ)يدعك(وَءَالِهَتَكَۚ)و ترك عبادتك و عبادة آلهتك و ينهى عنك و يصد الناس عن اتباعك.

قَالَ بَعْضُهُمْ: "الْوَاوُ" هُنَا حَالِيَّةٌ أَيْ:-أَتَذَرُهُ وَ قَوْمَهُ يُفْسِدُونَ وَ قَدْ تَرَكَ عبادتك؟

فـــــ(قَالَ)فرعون مجيبا لهم بأنه سيدع بنى إسرائيل مع موسى بحالة لا ينمون فيها و يأمن فرعون و قومه – بزعمه–من ضررهم:–(سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ)أى:نستبقيهن فلا نقتلهن فإذا فعلنا ذلك أمنا من كثرتهم و كنا مستخدمين لباقيهم و مسخرين لهم على ما نشاء من الأعمال

(وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ)لا خروج لهم عن حكمنا و لا قدرة وهذا نهاية الجبروت من فرعون والعتو والقسوة127

فــ(قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ)موصيا لهم فى هذه الحالة–التى لا يقدرون معها على شىء و لا مقاومة–بالمقاومة الإلهية و الاستعانة الربانية:–

(ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ)أى: اعتمدوا عليه في جلب ما ينفعكم و دفع ما يضركم و ثقوا باللّه أنه سيتم أمركم

(وَٱصْبِرُوٓاْ)أى:الزموا الصبر على ما يحل بكم منتظرين للفرج.

(إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ)ليست لفرعون و لا لقومه حتى يتحكموا فيها

(يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ)أى: يداولها بين الناس على حسب مشيئته و حكمته

لكن(وَٱلْعَٰقِبَةُ)الحميدة لهم على قومهم

(لِلْمُتَّقِينَ)فإنهم–و إن امتحنوا مدة ابتلاء من اللّه و حكمة فإن النصر لهم

و هذه وظيفة العبد أنه عند القدرة أن يفعل من الأسباب الدافعة عنه أذى الغير ما يقدر عليه و عند العجز أن يصبر و يستعين اللّه و ينتظر الفرج128

﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ﴾(١) الأعراف: ١٢٨

أحد الدعاة في مصر يتحدث عن قصة اعتقاله فيقول: لما دخلنا سجن القلعة وكان تحت الأرض؛ أُدخلنا إلى زنازينَ انفرادية، وكانت أصواتُ المعذَّبين وأنَّاتُهم تتعالى حولنا ليلا ونهارًا، وكانت الزنزانة مليئةً بالماء قيد شبرٍ ونصف، وكنا في زمهرير الشتاء، فلا مجال للنوم من أصوات التعذيب، ولا من الماء الذي يغمر أرجلنا، فكانت محنة شديدة، وما كان يخفف عنا إلا ذكر الله، وبقيةٌ من إيمانٍ أُشربناه في أيام الرخاء النسبي التي سبقت اعتقالنا.

وفي ليلة من الليالي وقد اشتدت عليَّ المحنة، وضاقت الزنزانة ضيقًا على ضيقٍ؛ رأيتُ فيما يرى النائم – وهو حلم يقظة – أنْ قد دخل عليَّ أحد الصالحين الذين أعرفهم، فاستبشرت برؤيته خيرًا، فسلَّم وسألني هل تحفظ سورة الأعراف، قلت: نعم، قال اقرأ: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [٢]، فلما قرأتُها – كأنما أنزلت لتوها وكأني لم أقرأها من قبلُ – ثبت الله بها قلبي، وسكَّن فؤادي، وحلَّت عليَّ رحمات كأنما أنام في بيتي على فراشي، فعجبتُ من أثرها، وصرتُ بعدها أقرؤها على إخواني كلما رأيت من أحدهم ضعفًا أو استسلامًا، والحمد لله الذي أحيانا بعد هذه المحنة وسلَّمنا.

الأعراف: ١٢٧-١٢٩

(قَالُوٓا۟)لموسى متضجرين من طول ما مكثوا فى عذاب فرعون و أذيته

(أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا)فإنهم يسوموننا سوء العذاب يذبحون أبناءنا و يستحيون نساءنا

(وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ)كذلك فـــ(قَالَ)لهم موسى مرجيا لهم الفرج و الخلاص من شرهم:-

(عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ)يمكنكم فيها و يجعل لكم التدبير فيها
***وَ هَذَا تَحْضِيضٌ لَهُمْ عَلَى الْعَزْمِ عَلَى الشُّكْرِ عِنْدَ حُلُولِ النِّعَمِ وَ زَوَالِ النِّقَمِ.**

(فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ)هل تشكرون أم تكفرون؟و هذا وعد أنجزه اللّه لما جاء الوقت الذى أراده اللّه 129
قال اللّه تعالى فى بيان ما عامل به آل فرعون فى هذه المدة الأخيرة أنها على عادته و سنته فى الأمم أن يأخذهم بالبأساء و الضراء لعلهم يضرعون:-

(وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ)بالدهور و الجدب

(ليس معناها الأعوام.فالشدائد ترقق القلوب و تدفع بالرجوع الى اللّه)

(وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ)يتعظون أن ما حل بهم و أصابهم معاتبة من اللّه لهم لعلهم يرجعون عن كفرهم فلم ينجع فيهم و لا أفاد بل استمروا على الظلم و الفساد 130

فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيۡهِمُ ٱلرِّجۡزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرۡسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلرِّجۡزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ ﴿١٣٧﴾

(فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ)أى:الخصب و إدرار الرزق(قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ)أى:نحن مستحقون لها فلم يشكروا اللّه عليها

(وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ)قحط و جدب

(يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ)أى يقولوا: إنما جاءنا بسبب مجيء موسى و اتباع بنى إسرائيل له.

(أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ)بقضائه و قدرته ليس كما قالوا بل إن ذنوبهم و كفرهم هو السبب في ذلك

(وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ)فلذلك قالوا ما قالوا131

(وَقَالُواْ)مبينين لموسى أنهم لا يزالون و لا يزولون عن باطلهم

(مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ)

أى:قد تقرر عندنا أنك ساحر فمهما جئت بآية جزمنا أنها سحر فلا نؤمن لك و لا نصدق

و هذا غاية ما يكون من العناد أن يبلغ بالكافرين إلى أن تستوي عندهم الحالات سواء نزلت عليهم الآيات أم لم تنزل132

(فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ)أى:الماء الكثير الذى أغرق أشجارهم و زروعهم و أضر بهم ضررا كثيرا

(وَٱلۡجَرَادَ)و هو معروف مشهور و هو مأكول فأكل ثمارهم و زروعهم و نباتهم

*البخارى5495 – عن ابْنَ أَبِي أَوْفَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ:-

«غَزَوْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺسَبْعَ غَزَوَاتٍ أَوْ سِتًّا كُنَّا نَأْكُلُ مَعَهُ الجَرَادَ»

(وَٱلۡقُمَّلَ)قيل:إنه الدباء أي: صغار الجراد و الظاهر أنه القمل المعروف

*وَ هِىَ دَابَّةٌ تُشْبِهُ القَمْل تَأْكُلُهَا الْإِبِلُ فِيمَا بَلَغَنِى وَ هِيَ الَّتِي عَنَاهَا الْأَعْشَى بِقَوْلِهِ:
قَوْمٌ تُعَالِجُ قُمَّلا أَبْنَاؤُهُمْ........وَ سَلَاسِلًا أجُدا وَ بَابًا مُؤْصَدَا
*هُوَ السُّوسُ الَّذِى يَخْرُجُ مِنَ الْحِنْطَةِ-دَوَابٌّ سُودٌ صِغَارٌ.

(وَٱلضَّفَادِعَ)فملأت أوعيتهم و أقلقتهم و آذتهم أذية شديدة

(وَٱلدَّمَ)إما أن يكون الرعاف أو كما قال كثير من المفسرين أن ماءهم الذى يشربون انقلب دما فكانوا لا يشربون إلا دما و لا يطبخون إلا بدم.

(ءَايَٰتٖ)أدلة و بينات(مُّفَصَّلَٰتٖ)على أنهم كانوا كاذبين ظالمين و على أن ما جاء به موسى حق و صدق

(فَٱسۡتَكۡبَرُواْ)ما رأوا الآيات(وَكَانُواْ)في سابق أمرهم(قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ)

فلذلك عاقبهم اللّه تعالى بأن أبقاهم على الغي و الضلال133

(وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيۡهِمُ ٱلرِّجۡزُ)العذاب يحتمل أن المراد به:–الطاعون كما قاله كثير من المفسرين

و يحتمل أن يراد به ما تقدم من الآيات:–الطوفان و الجراد و القمل و الضفادع و الدم فإنها رجز و عذاب و أنهم كلما أصابهم واحد منها

(قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ)تشفعوا بموسى بما عهد اللّه عنده من الوحي و الشرع

(لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرۡسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ)

و هم فى ذلك كذبة لا قصد لهم إلا زوال ما حل بهم من العذاب و ظنوا إذا رفع لا يصيبهم غير134

(فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلرِّجۡزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ)

إلى مدة قدر اللّه بقاءهم إليها و ليس كشفا مؤبدا و إنما هو مؤقت

(إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ)العهد الذى عاهدوا عليه موسى و وعدوه بالإيمان به و إرسال بني إسرائيل فلا آمنوا به و لا أرسلوا معه بني إسرائيل بل استمروا على كفرهم يعمهون و على تعذيب بني إسرائيل دائبين135

(فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ)أي: حين جاء الوقت المؤقت لهلاكهم أمر اللّه موسى أن يسرى ببنى إسرائيل ليلا

و أخبره أن فرعون سيتبعهم هو و جنوده (فَأَرۡسَلَ فِرۡعَوۡنُ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ) الشعراء: ٥٣

يجمعون الناس ليتبعوا بنى إسرائيل و قالوا لهم: (إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ ٥٤ وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ ٥٥ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ٥٦ فَأَخۡرَجۡنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ٥٧ وَكُنُوزٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ٥٨ كَذَٰلِكَ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٥٩ فَأَتۡبَعُوهُم مُّشۡرِقِينَ ٦٠ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ٦١ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ٦٢ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ٦٣ وَأَزۡلَفۡنَا ثَمَّ ٱلۡأٓخَرِينَ ٦٤ وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ٦٥ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ)الشعراء

و قال هنا:–(فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ)

بسبب تكذيبهم بآيات اللّه و إعراضهم عما دلت عليه من الحق136

(وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ)

تذكير بنى اسرائيل بالنعم 137-141

فى الأرض أى:–بنى إسرائيل الذين كانوا خدمة لآل فرعون يسومونهم سوء العذاب أورثهم اللّه

(مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا)الشام

و المراد بالأرض هاهنا أرض مصر التى كانوا فيها مستضعفين أذلين أى: ملكهم اللّه جميعا و مكنهم فيها

(ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ)-أيها الرسول-(ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ)بالتمكين لهم فى الأرض

(بِمَا صَبَرُواْۖ)بسبب صبرهم على أذى فرعون و قومه حين قال لهم موسى:–

(ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ)الأعراف: ١٢٨

*كقوله(وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ)القصص

(وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ)من الأبنية الهائلة و المساكن المزخرفة

(وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ)يبنون(فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ)النمل: ٥٢ 137

وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿١٤١﴾ ۞ وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٤٣﴾

(وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ)بعد ما أنجاهم اللّه من عدوهم فرعون و قومه و أهلكهم اللّه و بنو إسرائيل ينظرون

(فَأَتَوۡاْ)أى:مروا(عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ)يقيمون عندها و يتبركون و يعبدون(عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ)

فـــــــ(قَالُواْ)من جهلهم و سفههم لنبيهم موسى بعدما أراهم اللّه من الآيات ما أراهم

(يَٰمُوسَى ٱجۡعَل)اشرع(لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ)أن نتخذ أصناما آلهة كما اتخذها هؤلاء

فـــــ(قَالَ)لهم موسى:–(إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ)و أى جهل أعظم من جهل من جهل ربه و خالقه

و أراد أن يسوى به غيره ممن لا يملك:–نفعا و لا ضرا و لا موتا و لا حياة و لا نشورا؟138

و لهذا قال لهم موسى(إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ)هالك(مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ)من عبادتهم لتلك الأصنام

لأن دعاءهم إياها باطل و هى باطلة بنفسها فالعمل باطل و غايته باطلة.

*الترمذى2180 عَنْ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺلَمَّا خَرَجَ إِلَى حُنَيْنٍ مَرَّ بِشَجَرَةٍ لِلْمُشْرِكِينَ يُقَالُ لَهَا:- ذَاتُ أَنْوَاطٍ يُعَلِّقُونَ عَلَيْهَا أَسْلِحَتَهُمْ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:"سُبْحَانَ اللَّهِ هَذَا كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى{اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ}[الأعراف: 138]

وَ الَّذِى نَفْسى بِيَدِهِ لَتَرْكَبُنَّ سُنَّةَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ '139

(قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا)أى:أأطلب لكم إلها غير اللّه المألوه الكامل فى ذاته و صفاته و أفعاله.

(وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ)يذكِّرهم مُوسَى عليه السلام بِنِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ:-

1-إِنْقَاذِهِمْ مِنْ أَسْرِ فِرْعَوْنَ وَ قَهْرِهِ وَ مَا كَانُوا فِيهِ مِنَ الْهَوَانِ وَ الذِّلَّةِ وَ مَا صَارُوا إِلَيْهِ مِنَ الْعِزَّةِ وَ الِاشْتِفَاءِ مِنْ عَدُوِّهِمْ

2-وَ النَّظَرِ إِلَيْهِ فِي حَالِ هَوَانِهِ وَ هَلَاكِهِ وَ غَرَقِهِ وَ دَمَارِهِ. وَ قَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهَا فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ.

*فيقتضى أن تقابلوا فضله و تفضيله بالشكر و ذلك بإفراده وحده بالعبادة و الكفر بما يدعى من دونه140

*ثم ذكرهم بما امتن اللّه به عليهم فقال:–(وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ)أى: من فرعون و آله

(يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ)أى: يوجهون إليكم من العذاب أسوأه و هو أنهم كانوا

(يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ)يبقونهم أحياء(وَفِى ذَٰلِكُم)النجاة من عذابهم

(بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ)أى:–نعمة جليلة و منحة جزيلة

مناجاة موسى و نزول التوراة142-145

أو:–و فى ذلك العذاب الصادر منهم لكم بلاء من ربكم عليكم عظيم141

فلما ذكرهم موسى و وعظهم انتهوا عن ذلك(وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ)

*وَ قَدِ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي هَذِهِ الْعَشْرِ مَا هِيَ؟

فَالْأَكْثَرُونَ عَلَى أَنَّ الثَّلَاثِينَ هِيَ ذُو الْقَعْدَةِ وَ الْعَشْرُ عَشْرُ ذِي الْحِجَّةِ

(فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً)فَلَمَّا تَمَّ الْمِيقَاتُ عَزَمَ مُوسَى عَلَى الذَّهَابِ إِلَى الطُّورِ كَمَا قَالَ:-

{يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ}[طه: 80]

*و لما أتم اللّه نعمته عليهم بالنجاة من عدوهم و تمكينهم في الأرض أراد تبارك و تعالى أن يتم نعمته عليهم بإنزال الكتاب الذى فيه:–

1–الأحكام الشرعية 2–و العقائد المرضية

فواعد موسى ثلاثين ليلة و أتمها بعشر فصارت أربعين ليلة ليستعد موسى و يتهيأ لوعد اللّه و يكون لنزولها موقع كبير لديهم و تشوق إلى إنزالها.

*و لما ذهب موسى إلى ميقات ربه(وَقَالَ مُوسَىٰ)لهارون موصيا له على بني إسرائيل من حرصه عليهم و شفقته:

(لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى)أى:كن خليفتي فيهم و اعمل فيهم بما كنت أعمل

(وَأَصْلِحْ)أى:–اتبع طريق الصلاح(وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ)و هم الذين يعملون بالمعاصي142

(وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا)الذى وقتناه له لإنزال الكتاب

(وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ)بما كلمه من وحيه و أمره و نهيه تشوق إلى رؤية اللّه و نزعت نفسه لذلك حبا لربه و مودة لرؤيته.

فــــــ(قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ)اللّهِ(لَن تَرَىٰنِى)لن تقدر الآن على رؤيتى

فإن اللّه تبارك و تعالى أنشأ الخلق في هذه الدار على نشأة لا يقدرون بها و لا يثبتون لرؤية اللّه

و ليس في هذا دليل على أنهم لا يرونه في الجنة

فإنه قد دلت النصوص القرآنية و الأحاديث النبوية على أن أهل الجنة يرون ربهم تبارك و تعالى و يتمتعون بالنظر إلي وجهه الكريم و أنه ينشئهم نشأة كاملة يقدرون معها على رؤية اللّه تعالى

و لهذا رتب اللّه الرؤية في هذه الآية على ثبوت الجبل فقال–مقنعا لموسى فى عدم إجابته للرؤية–

(وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ)إذا تجلى اللّه له

(فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ)الأصم الغليظ

*الترمذى3074 عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ: " قَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ {فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا}[الأعراف: 143]قَالَ حَمَّادٌ:- هَكَذَا و أَمْسَكَ سُلَيْمَانُ بِطَرَفِ إِبْهَامِهِ عَلَى أُنْمُلَةِ إِصْبَعِهِ اليُمْنَى قَالَ:فَسَاخَ الجَبَلُ{وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا}[الأعراف: 143]

(جَعَلَهُۥ دَكّٗا)انهال مثل الرمل انزعاجا من رؤية اللّه و عدم ثبوته لها

(وَخَرَّ مُوسَىٰ)حين رأى ما رأى

(صَعِقٗاۚ)مغشيا عليه

فتبين له حينئذ أنه إذا لم يثبت الجبل لرؤية اللّه فموسى أولى أن لا يثبت لذلك

*البخارى4638 عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ:-
جَاءَ رَجُلٌ مِنَ اليَهُودِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ قَدْ لُطِمَ وَجْهُهُ و قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِكَ مِنَ الأَنْصَارِ لَطَمَ فِي وَجْهِي قَالَ: «ادْعُوهُ» فَدَعَوْهُ قَالَ: «لِمَ لَطَمْتَ وَجْهَهُ؟»قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي مَرَرْتُ بِاليَهُودِ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: وَ الَّذِى اصْطَفَى مُوسَى عَلَى البَشَرِ فَقُلْتُ: وَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَ أَخَذَتْنِى غَضْبَةٌ فَلَطَمْتُهُ قَالَ: «لَا تُخَيِّرُونِى مِنْ بَيْنِ الأَنْبِيَاءِ فَإِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى آخِذٌ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ العَرْشِ فَلَا أَدْرِى أَفَاقَ قَبْلِى أَمْ جُزِىَ بِصَعْقَةِ الطُّورِ»

(فَلَمَّآ أَفَاقَ)و الافاقة لا تكون الا من غشى. استغفر ربه لما صدر منه من السؤال الذى لم يوافق موضعا

و لذلك (قَالَ سُبۡحَٰنَكَ)أى:تنزيها لك و تعظيما عما لا يليق بجلالك

(تُبۡتُ إِلَيۡكَ)من جميع الذنوب و سوء الأدب معك

(وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ)و أنا أول المؤمنين بك من قومى

*أى:–جدد عليه السلام إيمانه بما كمل اللّه له مما كان يجهله قبل ذلك143

فلما منعه اللّه من رؤيته – بعدما كان متشوقا إليها – أعطاه خيرا كثيرا فقال:–

قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾

(قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ)اخترتك و اجتبيتك و فضلتك و خصصتك

(عَلَى ٱلنَّاسِ)بفضائل عظيمة و مناقب جليلة(بِرِسَٰلَٰتِي)التى لا أجعلها و لا أخص بها إلا أفضل الخلق.

(وَبِكَلَٰمِي)إياك من غير واسطة و هذه فضيلة اختص بها موسى الكليم و عرف بها من بين إخوانه من المرسلين

(فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ)من النعم و خذ ما آتيتك من الأمر و النهى بانشراح صدر و تلقه بالقبول و الانقياد

(وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ)لله على ما خصك و فضلك144

(وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ)يحتاج إليه العباد

(مَّوۡعِظَةٗ)ترغب النفوس في أفعال الخير و ترهبهم من أفعال الشر

(وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ)من الأحكام الشرعية و العقائد و الأخلاق و الآداب

*كَانَتِ الْأَلْوَاحُ مِنْ جَوْهَرٍ وَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَتَبَ لَهُ فِيهَا مَوَاعِظَ وَ أَحْكَامًا مُفَصَّلَةً مُبَيِّنَةً لِلْحَلَالِ وَ الْحَرَامِ وَ كَانَتْ هَذِهِ الْأَلْوَاحُ مُشْتَمِلَةً عَلَى التَّوْرَاةِ الَّتِى قَالَ اللَّهُ فِيهَا

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأولَى بَصَايِرَ لِلنَّاسِ﴾[الْقَصَص:43]

وَ قِيلَ:-الْأَلْوَاحُ أُعْطِيَهَا مُوسَى قَبْلَ التَّوْرَاةِ فَاللَّهُ أَعْلَمُ.

*وَ عَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ كَانَتْ كَالتَّعْوِيضِ لَهُ عَمَّا سَأَلَ مِنَ الرُّؤْيَةِ وَ مُنِعَ مِنْهُ وَ اللَّهُ أَعْلَمُ.

(فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ)بجد و اجتهاد على إقامتها

(وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ)و هى الأوامر الواجبة و المستحبة فإنها أحسنها

و في هذا دليل على أن أوامر اللّه – في كل شريعة – كاملة عادلة حسنة.

(سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ)

بعد ما أهلكهم اللّه و أبقى ديارهم عبرة بعدهم يعتبر بها المؤمنون الموفقون المتواضعون.

*سَتَرَوْنَ عَاقِبَةَ مَنْ خَالَفَ أَمْرِى وَ خَرَجَ عَنْ طَاعَتِى كَيْفَ يَصِيرُ إِلَى الْهَلَاكِ وَ الدَّمَارِ وَ التَّبَابِ؟

و قيل:مِنْ أَهْلِ الشَّامِ وَ أُعْطِيكُمْ إِيَّاهَا 145

و أما غيرهم فقال عنهم:(سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ)عن الاعتبار في الآيات الأفقية و النفسية و الفهم لآيات الكتاب

*سَأَمْنَعُ فهم الحجج وَ الْأَدِلَّةِ عَلَى عَظْمَتِى وَ شَرِيعَتِى وَ أَحْكَامِى قُلُوبَ الْمُتَكَبِّرِينَ عَنْ طَاعَتِى وَ يَتَكَبَّرُونَ عَلَى النَّاسِ بِغَيْرِ حَقٍّ أَىْ: كَمَا اسْتَكْبَرُوا بِغَيْرِ حَقٍّ أَذَلَّهُمُ اللَّهُ بِالْجَهْلِ

كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ}[الأنعام:110]وَ قَالَ{فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ} [الصَّفِّ:5]

*وَ قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: لَا يَنَالُ الْعِلْمَ حَيِيٌّ وَ لَا مُسْتَكْبِرٌ.

عقوبة المتكبرين و المكذبين 146-147

(ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ)أي: يتكبرون على عباد اللّه و على الحق و على من جاء به

فمن كان بهذه الصفة حرمه اللّه خيرا كثيرا و خذله و لم يفقه من آيات اللّه ما ينتفع به بل ربما انقلبت عليه الحقائق و استحسن القبيح.

(وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا)لإعراضهم و اعتراضهم و محادتهم للّه و رسوله

*كقوله﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ يونس

(وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ)الهدى و الاستقامة و هو الصراط الموصل إلى اللّه و إلى دار كرامته

(لَا يَتَّخِذُوهُ)يسلكوه و لا يرغبوا فيه(سَبِيلًا)

(وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ)الغواية الموصل لصاحبه إلى دار الشقاء(يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا)

و السبب فى انحرافهم هذا الانحراف:-

(ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ)فردهم لآيات اللّه و غفلتهم عما يراد بها و احتقارهم لها – هو الذي أوجب لهم من سلوك طريق الغي و ترك طريق الرشد ما أوجب146

(وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا)العظيمة الدالة على صحة ما أرسلنا به رسلنا.

(وَلِقَآءِ ٱلْأَخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ)

لأنها على غير أساس و قد فقد شرطها و هو الإيمان بآيات اللّه و التصديق بجزائه

(هَلْ يُجْزَوْنَ)فى بطلان أعمالهم و حصول ضد مقصودهم

(إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ)

فإن أعمال من لا يؤمن باليوم الآخر لا يرجو فيها ثوابا و ليس لها غاية تنتهى إليه فلذلك اضمحلت و بطلت147

(وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلًا جَسَدًا)صاغه السامرى و ألقى عليه قبضة من أثر الرسول فصار

(لَّهُۥ خُوَارٌۚ)و صوت فعبدوه و اتخذوه إلها.و قال(فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ)طه: ٨٨

*و ذهب يطلبه و هذا من سفههم و قلة بصيرتهم كيف اشتبه عليهم رب الأرض و السماوات بعجل من أنقص المخلوقات؟

و لهذا قال مبينا أنه ليس فيه من الصفات الذاتية و لا الفعلية ما يوجب أن يكون إلها

(أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ)و عدم الكلام نقص عظيم فهم أكمل حالة من هذا الحيوان أو الجماد الذى لا يتكلم

(وَلَا يَهۡدِيهِمۡ)يدلهم(سَبِيلًاۘ)طريقا دينيا و لا يحصل لهم مصلحة دنيوية لأن من المتقرر في العقول

و الفطر أن اتخاذ إله لا يتكلم و لا ينفع و لا يضر من أبطل الباطل و أسمج السفه

و لهذا قال:-(ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ)حيث وضعوا العبادة فى غير موضعها و أشركوا باللّه ما لم ينزل به سلطانا و فيها دليل على أن من أنكر كلام اللّه فقد أنكر خصائص إلهية اللّه تعالى

لأن اللّه ذكر أن عدم الكلام دليل على عدم صلاحية الذى لا يتكلم للإلهية148

قصة السامرى 148-154

(وَلَمَّا)رجع موسى إلى قومه فوجدهم على هذه الحالو أخبرهم بضلالهم ندموا

و(سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ)أى: من الهم و الندم على فعلهم

(وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ)فتنصلوا إلى اللّه و تضرعوا

و(قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا)فيدلنا عليه و يرزقنا عبادته و يوفقنا لصالح الأعمال

(وَيَغۡفِرۡ لَنَا)ما صدر منا من عبادة العجل

(لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ)مِنَ الْهَالِكِينَ الذين خسروا الدنيا و الآخرة وَ هَذَا اعْتِرَافٌ مِنْهُمْ بِذَنْبِهِمْ وَ الْتِجَاءٌ إِلَى اللَّهِ عز وجل.

*اضافة من بن كثير:-

*يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ ضَلَالِ مَنْ ضَلَّ مِنْ بَنِى إِسْرَائِيلَ فِي عِبَادَتِهِمُ الْعِجَلَ الَّذِي اتَّخَذَهُ لَهُمُ السَّامِرِيُّ مِنْ حُلِيِّ الْقِبْطِ الَّذِي كَانُوا اسْتَعَارُوهُ مِنْهُمْ فَشَكَّلَ لَهُمْ مِنْهُ عِجْلًا ثُمَّ أَلْقَى فِيهِ الْقَبْضَةَ مِنَ التُّرَابِ الَّتِى أَخَذَهَا مِنْ أَثَرِ فَرَسِ جِبْرِيلَ عليه السلامفَصَارَ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ وَ"الْخُوَارُ" صَوْتُ الْبَقَرِ.

وَ كَانَ هَذَا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَهَابِ مُوسَى عليه السلاملِمِيقَاتِ رَبِّهِ تَعَالَى وَ أَعْلَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِذَلِكَ وَ هُوَ عَلَى الطُّورِ حَيْثُ يَقُولُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ:{قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ} [طه:85]149

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾

(وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا)ممتلئا غضبا و غيظا عليهم لتمام غيرته عليه السلام و كمال نصحه و شفقته

* قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ "الْأَسَفُ":- أَشَدُّ الْغَضَبِ.

(قَالَ بِئْسَمَا)بئس الحالة التى(خَلَفْتُمُونِى)بها(مِنۢ بَعْدِىٓ)بعد ذهابى عنكم فإنها حالة تفضى إلى الهلاك الأبدي و الشقاء السرمدى

(أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ)حيث وعدكم بإنزال الكتاب فبادرتم–برأيكم الفاسد–إلى هذه الخصلة القبيحة

*أحمد 1842 - عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ:-قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:-«لَيْسَ الْخَبَرُ كَالْمُعَايَنَةِ»

*ابن حبان 6214 عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:-

«لَيْسَ الْمُعَايِنُ كَالْمُخْبَرِ أَخْبَرَ اللَّهُ مُوسَى أَنَّ قَوْمَهُ فُتِنُوا فَلَمْ يُلْقِ الْأَلْوَاحَ فَلَمَّا رَآهُمْ أَلْقَى الْأَلْوَاحَ»

(وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ)أى: رماها من الغضب

(وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ)هارون و لحيته خَوْفًا أَنْ يَكُونَ قَدْ قَصَّرَ فِي نَهْيِهِمْ

(يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ){قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي92 قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي93 إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي}[طه]

فـــ(قَالَ)هنا(ٱبْنَ أُمَّ)هذا ترقيق لأخيه بذكر الأم وحدها و إلا فهو شقيقه لأمه و أبيه:–

(إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى)احتقرونى حين قلت لهم:–

(وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى)طه: ٩٠

(وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي)أى: فلا تظن بى تقصيرا

(فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ)بنهرك لى و مسك إياى بسوء فإن الأعداء حريصون على أن يجدوا عليَّ عثرة أو يطلعوا لى على زلة

(وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ)فتعاملنى معاملتهم.

فندم موسى عليه السلام على ما استعجل من صنعه بأخيه قبل أن يعلم براءته مما ظنه فيه من التقصير.

(قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي)وسط(رَحۡمَتِكَۖ)و اجعل رحمتك تحيط بنا من كل جانب فإنها حصن حصين من جميع الشرور و ثم كل خير و سرور.

(وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ)أى:أرحم بنا من كل راحم أرحم بنا من آبائنا و أمهاتنا و أولادنا و أنفسنا.

قال اللّه تعالى مبينا حال أهل العجل الذين عبدوه :–

(إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ)أى: إلها

(سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ)كما أغضبوا ربهم و استهانوا بأمره.

*أَمَّا الْغَضَبُ الَّذِي نَالَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي عِبَادَةِ الْعِجْلِ:-

فَهُوَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَقْبَلْ لَهُمْ تَوْبَةً حَتَّى قَتَل بَعْضُهُمْ بَعْضًا كَمَا تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ:-

{فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[البَقَرَة:54]

*وَ أَمَّا الذِّلَّةُ:-فَأَعْقَبَهُمْ ذَلِكَ ذُلًّا وَ صَغَارًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

(وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ)فكل مفتر على اللّه كاذب على شرعه متقول عليه ما لم يقل فإن له نصيبا من الغضب من اللّه و الذل فى الحياة الدنيا و قد نالهم غضب اللّه حيث أمرهم أن يقتلوا أنفسهم

و أنه لا يرضى اللّه عنهم إلا بذلك فقتل بعضهم بعضا و انجلت المعركة عن كثير من القتلى ثم تاب اللّه عليهم بعد ذلك.

و لهذا ذكر حكما عاما يدخلون فيه هم و غيرهم فقال:–

(وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ)من شرك و كبائر و صغائر

(ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا)بأن ندموا على ما مضى و أقلعوا عنها و عزموا على أن لا يعودوا

(وَءَامَنُوٓاْ)باللّه و بما أوجب اللّه من الإيمان به و لا يتم الإيمان إلا بأعمال القلوب و أعمال الجوارح المترتبة على الإيمان

(إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا)أى: بعد هذه الحالة حالة التوبة من السيئات و الرجوع إلى الطاعات

(لَغَفُورٞ)يغفر السيئات و يمحوها و لو كانت قراب الأرض

(رَّحِيمٌ)بقبول التوبة و التوفيق لأفعال الخير و قبولها.

(وَلَمَّا سَكَتَ)سكن غضبه(عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ)و تراجعت نفسه و عرف ما هو فيه اشتغل بأهم الأشياء عنده

فـــــ (أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَ)التى ألقاها و هى ألواح عظيمة المقدار جليلة

(وَفِي نُسۡخَتِهَا)فى ما نسخه منها بعد تكسرها نسخة فيها أى:مشتملة و متضمنة .

*يَقُولُ كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ:-إِنَّهَا لَمَّا أَلْقَاهَا تَ كَسَّرَتْ ثُمَّ جَمَعَهَا بَعْدَ ذَلِكَ
وَ لِهَذَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: فَوَجَدَ فِيهَا هُدًى وَ رَحْمَةً. وَ أَمَّا التَّفْصِيلُ فَذَهَبَ

(هُدٗى وَرَحۡمَةٞ)أى: فيها الهدى من الضلالة و بيان الحق من الباطل و أعمال الخير و أعمال الشر

و الهدى لأحسن الأعمال و الأخلاق و ا لآداب

(وَرَحۡمَةٞ)و سعادة لمن عمل بها و علم أحكامها و معانيها و لكن ليس كل أحد يقبل هدى اللّه و رحمته

و إنما يقبل ذلك و ينقاد له و يتلقاه بالقبول

(لِّلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ)يخافون منه و يخشونه

و أما من لم يخف اللّه و لا المقام بين يديه فإنه لا يزداد بها إلا عتوا و نفورا و تقوم عليه حجة اللّه فيها.

*ضَمَّنَ الرَّهْبَةَ مَعْنَى الْخُضُوعِ وَ لِهَذَا عدَّاها بِاللَّامِ.

(و) لما تاب بنو إسرائيل و تراجعوا إلى رشدهم

اعتذار موسى لربه عن ضلال قومه 155-156

(وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ)منهم

(سَبۡعِينَ رَجُلٗا)من خيارهم ليعتذروا لقومهم عند ربهم

(لِّمِيقَٰتِنَاۖ)و وعدهم اللّه ميقاتا يحضرون فيه فلما حضروه قالوا:– يا موسى(فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ) النساء: ١٥٣

فتجرأوا على اللّه جراءة كبيرة و أساءوا الأدب معه

(فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ)فصعقوا و هلكوا.فلم يزل موسى عليه السلام يتضرع إلى اللّه و يتبتل

(قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ)أن يحضروا و يكونون فى حالة يعتذرون فيها لقومهم فصاروا هم الظالمين

*إِنَّمَا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ لِأَنَّهُمْ لَمْ يُزَايِلُوا قَوْمَهُمْ فِي عِبَادَتِهِمُ الْعِجْلَ وَ لَا نَهَوْهُمْ وَ يَتَوَجَّهُ هَذَا الْقَوْلُ بِقَوْلِ موسى:-(أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ)ضعفاء العقول سفهاء الأحلام(مِنَّآۖ)

فتضرع إلى اللّه و اعتذر بأن المتجرئين على اللّه ليس لهم عقول كاملة تردعهم عما قالوا و فعلوا

و بأنهم حصل لهم فتنة يخطر بها الإنسان و يخاف من ذهاب دينه

فقام موسى يتضرع إلى الله و يقول:-رب ماذا أقول لبنى إسرائيل إذا أتيتُهم و قد أهلكتَ خيارهم؟

لو شئت أهلكتهم جميعًا من قبل هذا الحال و أنا معهم فإن ذلك أخف عليَّ فقال:–

(إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ)ابْتِلَاؤُكَ وَ اخْتِبَارُكَ وَ امْتِحَانُكَ

يَقُولُ:إِنِ الأمرُ إِلَّا أمرُك وَ إِنِ الحكمُ إِلَّا لَكَ فَمَا شِئْتَ كَانَ تَضِلُّ مَنْ تَشَاءُ وَ تَهْدِى مَنْ تَشَاءُ وَ لَا هَادِىَ لِمَنْ أَضْلَلْتَ وَ لَا مُضل لِمَنْ هَدَيت وَلَا مُعطِى لِمَا مَنَعت وَلَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ فَالْمُلْكُ كُلُّهُ لَكَ وَالْحُكْمُ كُلُّهُ لَكَ لَكَ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ.

(تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا)الغَفْر:-السَّتْرُ وَ تَرْكُ الْمُؤَاخَذَةِ بِالذَّنْبِ(وَٱرۡحَمۡنَاۖ)

وَ الرَّحْمَةُ إِذَا قُرِنَتْ مَعَ الْغَفْرِ يُرَادُ بِهَا أَلَّا يُوقِعَهُ فِي مِثْلِهِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ

(وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ)أَىْ: لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ

أي: أنت خير من غفر و أولى من رحم و أكرم من أعطى و تفضل

فكأن موسى عليه السلام قال: المقصود يا رب بالقصد الأول لنا كلنا هو التزام طاعتك و الإيمان بك و أن من حضره عقله و رشده و تم على ما وهبته من التوفيق فإنه لم يزل مستقيما

*و أما من ضعف عقله و سفه رأيه و صرفته الفتنة فهو الذى فعل ما فعل لذينك السببين

و مع هذا فأنت أرحم الراحمين و خير الغافرين فاغفر لنا و ارحمنا.

فأجاب اللّه سؤاله و أحياهم من بعد موتهم و غفر لهم ذنوبهم.

۞ وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ﴿١٥٩﴾

و قال موسى فى تمام دعائه:–

(وَٱكۡتُبۡ)أثبِتْ لنا أو أوجب(لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ)من علم نافع و رزق واسع و عمل صالح

(وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ)حسنة و هى ما أعد اللّه لأوليائه الصالحين من الثواب.

(إِنَّا هُدۡنَآ)رجعنا(إِلَيۡكَۚ)مقرين بتقصيرنا منيبين فى جميع أمورنا.

(قَالَ)اللّه(عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ)ممن كان شقيا متعرضا لأسبابه

(وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ)من العالم العلوى و السفلي البر و الفاجر المؤمن و الكافر فلا مخلوق إلا و قد وصلت إليه رحمة اللّه و غمره فضله و إحسانه و لكن الرحمة الخاصة المقتضية لسعادة الدنيا و الآخرة ليست لكل أحد

*آيَةٌ عَظِيمَةُ الشُّمُولِ وَ الْعُمُومِ كَقَوْلِهِ إِخْبَارًا عَنْ حَمَلَة الْعَرْشِ وَ مَنْ حَوْلَهُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ:

﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غَافِر:7]

*مسلم(2753) عَنْ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ رضي الله عنه قَالَ:- قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:-

«إِنَّ لِلَّهِ مِائَةَ رَحْمَةٍ فَمِنْهَا رَحْمَةٌ بِهَا يَتَرَاحَمُ الْخَلْقُ بَيْنَهُمْ وَ تِسْعَةٌ وَ تِسْعُونَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ»

و لهذا قال عنها:–(فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ)المعاصى صغارها و كبارها الشرك و العظائم من الذنوب

*فَسَأُوجِبُ حُصُولَ رَحْمَتِي مِنَّةً مِنِّي وَ إِحْسَانًا إِلَيْهِمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى:﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الْأَنْعَام:54]

(وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ)الواجبة مستحقيها

(وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ)و من تمام الإيمان بآيات اللّه معرفة معناها و العمل بمقتضاها و من ذلك اتباع النبى ﷺظاهرا و باطنا فى أصول الدين و فروعه156

أوامر الله لبنى اسرائيل 157-162

(ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ)

احتراز عن سائر الأنبياء فإن المقصود بهذا محمد بن عبد اللّه بن عبد المطلب ﷺ.

و السياق فى أحوال بنى إسرائيل و أن الإيمان بالنبى محمدﷺفى دخولهم في الإيمان و أن المؤمنين به المتبعين هم أهل الرحمة المطلقة التي كتبها اللّه لهم و وصفه بالأمى لأنه من العرب الأمة الأمية التى لا تقرأ و لا تكتب و ليس عندها قبل القرآن كتاب.

(ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ)باسمه و صفته التى من أعظمها و أجلها ما يدعو إليه و ينهى عنه و أنه(يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ)و هو كل ما عرف حسنه و صلاحه و نفعه.

(وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ)وهو: كل ما عرف قبحه فى العقول و الفطر.

فيأمرهم بالصلاة و الزكاة و الصوم و الحج و صلة الأرحام و بر الوالدين و الإحسان إلى الجار و المملوك و بذل النفع لسائر الخلق و الصدق و العفاف و البر و النصيحة و ما أشبه ذلك

و ينهى عن الشرك باللّه و قتل النفوس بغير حق و الزنا و شرب ما يسكر العقل و الظلم لسائر الخلق و الكذب و الفجور و نحو ذلك.

فأعظم دليل يدل على أنه رسول اللّه ما دعا إليه و أمر به و نهى عنه و أحله و حرمه

*أحمد 16058 - عَنْ أَبِي حُمَيْدٍ و أَبِي أُسَيْدٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺقَالَ:-
«إِذَا سَمِعْتُمُ الْحَدِيثَ عَنِّي تَعْرِفُهُ قُلُوبُكُمْ وَ تَلِينُ لَهُ أَشْعَارُكُمْ وَ أَبْشَارُكُمْ وَ تَرَوْنَ أَنَّهُ مِنْكُمْ قَرِيبٌ فَأَنَا أَوْلَاكُمْ بِهِ وَ إِذَا سَمِعْتُمُ الْحَدِيثَ عَنِّى تُنْكِرُهُ قُلُوبُكُمْ وَ تَنْفِرُ أَشْعَارُكُمْ وَ أَبْشَارُكُمْ وَ تَرَوْنَ أَنَّهُ مِنْكُمْ بَعِيدٌ فَأَنَا أَبْعَدُكُمْ مِنْهُ»

فإنه(وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ)من المطاعم و المشارب و المناكح.

أَى:يُحِلُّ لَهُمْ مَا كَانُوا حَرَّمُوهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْبَحَائِرِ وَ السَّوَائِبِ وَ الْوَصَائِلِ وَ الِحَامِ وَ نَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا كَانُوا ضَيَّقُوا بِهِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ

(وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ)من المطاعم و المشارب و المناكح و الأقوال و الأفعال كَلَحْمِ الْخِنْزِيرِ وَ الرِّبَا وَ مَا كَانُوا يَسْتَحِلُّونَهُ مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ مِنَ الْمَآكِلِ الَّتِى حَرَّمَهَا اللَّهُ تَعَالَى.

*وَ قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ:-
كُلُّ مَا أَحَلَّ اللَّهُ تَعَالَى فَهُوَ طَيِّبٌ نَافِعٌ فِي الْبَدَنِ وَ الدِّينِ وَ كُلُّ مَا حَرَّمَهُ فَهُوَ خَبِيثٌ ضَارٌّ فِي الْبَدَنِ وَ الدِّينِ.

(وَيَضَعُ)يحط(عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ)تبعة العهد الذى أخذ عليهم بالعمل فيما فى التوراة و الإنجيل بأن يعملوا بكل ما جاء فيهما

(وَٱلۡأَغۡلَٰلَ)الشدائد(ٱلَّتِي كَانَتۡ)المفروض(عَلَيۡهِمۡۚ)القيام بها و يذهب عنهم ما كُلِّفوه من الأمور الشاقة:-

1-كقطع موضع النجاسة من الثوب

2-و إحراق الغنائم

3-و القصاص حتمًا من القاتل عمدًا كان القتل أم خطأ إذ لا عفو و لا دية

أى: و من وصفه أن دينه سهل سمح ميسر لا إصر فيه و لا أغلال و لا مشقات و لا تكاليف ثقال.

*البخارى3038 عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي بُرْدَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺبَعَثَ مُعَاذًا وَ أَبَا مُوسَى إِلَى الْيَمَنِ قَالَ:-«يَسِّرَا(خذا بما فيه من التيسير)وَ لَاتُعَسِّرَا(من التعسير وهو التشديد)وَ بَشِّرَا(من التبشير و هو إدخال السرور)

وَ لَا تُنَفِّرَا(من التنفير أي لا تذكرا شيئا يهربون منه)وَ تَطَاوَعَا(تحابا و ليطع كل منكما الآخر)وَ لَا تَخْتَلِفَا»

*البخارى1211-حَدَّثَنَا آدَمُ حَدَّثَنَا شُعْبَةُ حَدَّثَنَا الْأَزْرَقُ بْنُ قَيْسٍ قَالَ:-

كُنَّا بِالْأَهْوَازِ(بلاد بين البصرة وفارس)نُقَاتِلُ الْحَرُورِيَّةَ(فئة من الخوارج نسبة إلى حروراء وهي قرية من قرى الكوفة)

فَبَيْنَا أَنَا عَلَى جُرُفِ(جانب ويطلق على المكان الذي أكله السيل)نَهَرٍ إِذَا رَجُلٌ يُصَلِّي وَ إِذَا لِجَامُ(ما يوضع في فم الفرس لتقاد به)دَابَّتِهِ بِيَدِهِ فَجَعَلَتِ الدَّابَّةُ تُنَازِعُهُ(تشد بلجامها كي تنفلت)وَ جَعَلَ يَتْبَعُهَا(يسير معها)-قَالَ شُعْبَةُ:-

هُوَ أَبُو بَرْزَةَ الْأَسْلَمِيُّ-فَجَعَلَ رَجُلٌ مِنَ الْخَوَارِجِ يَقُولُ:-

اللَّهُمَّ افْعَلْ بِهَذَا(يدعو عليه و يسبه)الشَّيْخِ فَلَمَّا انْصَرَفَ الشَّيْخُ قَالَ:-إِنِّي سَمِعْتُ قَوْلَكُمْ وَ إِنِّي غَزَوْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺستَّ غَزَوَاتٍ-أَوْ سَبْعَ غَزَوَاتٍ-وَ ثَمَانِيَ وَ شَهِدْتُ تَيْسِيرَهُ»وَ إِنِّي إِنْ كُنْتُ أَنْ أُرَاجِعَ مَعَ دَابَّتِي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَدَعَهَا تَرْجِعُ إِلَى مَأْلَفِهَا(ما ألفته واعتادته من الذهاب إلى المرعى أو البيت)فَيَشُقُّ عَلَيَّ(رجوعى إلى أهلى بدونها لبعد منزلى)

*البخارى 6664 عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه يَرْفَعُهُ قَالَ:-

«إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي عَمَّا وَسْوَسَتْ أَوْ حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَعْمَلْ بِهِ أَوْ تَكَلَّمْ»

(فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ)عظموه و بجلوه(وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ)

و هو القرآن الذى يستضاء به فى ظلمات الشك و الجهالات و يقتدى به إذا تعارضت المقالات

(أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ)الظافرون بخير الدنيا و الآخرة و الناجون من شرهما لأنهم أتوا بأكبر أسباب الفلاح.

و أما من لم يؤمن بهذا النبى الأمى و يعزره و ينصره و لم يتبع النور الذى أنزل معه فأولئك هم الخاسرون157

*و لما دعا أهل التوراة من بنى إسرائيل إلى اتباعه و كان ربما توهم متوهم أن الحكم مقصور عليهم أتى بما يدل على العموم فقال:-(وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ)

(قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا)

*كقوله(قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ) الأنعام: ١٩

أي: عربيكم و عجميكم أهل الكتاب منكم و غيرهم.

*مسلم (153)عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺأَنَّهُ قَالَ:-

«وَ الَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَ لَا نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَ لَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ»

*مسلم(521) عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْأَنْصَارِيِّﷺ قَالَ:-قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:-
«أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي:-
1-كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَ بُعِثْتُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَ أَسْوَدَ
2-وَ أُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ وَ لَمْ تُحَلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي
3-وَ جُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ طَيِّبَةً طَهُورًا وَ مَسْجِدًا فَأَيُّمَا رَجُلٍ أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ صَلَّى حَيْثُ كَانَ
4-وَ نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ بَيْنَ يَدَيْ مَسِيرَةِ شَهْرٍ
5-وَ أُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ»

(ٱلَّذِى لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ)يتصرف فيهما بأحكامه الكونية و التدابير السلطانية و بأحكامه الشرعية الدينية التى من جملتها:-أن أرسل إليكم رسولا عظيما يدعوكم إلى اللّه و إلى دار كرامته و يحذركم من كل ما يباعدكم منه و من دار كرامته.

(لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ)أى:-لا معبود بحق إلا اللّه وحده لا شريك له و لا تعرف عبادته إلا من طريق رسله

(يُحۡىِۦ وَيُمِيتُ)أى:-من جملة تدابيره: الإحياء و الإماتة التى لا يشاركه فيها أحد الذى جعل الموت جسرا و معبرا يعبر منه إلى دار البقاء التى من آمن بها صدق الرسول محمدا ﷺ قطعا.

(فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ)المستقيم فى عقائده و أعماله

(ٱلنَّبِىِّ ٱلۡأُمِّىِّ)إيمانا فى القلب متضمنا لأعمال القلوب و الجوارح(ٱلَّذِى يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ)

(وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ)فى مصالحكم الدينية و الدنيوية فإنكم إذا لم تتبعوه ضللتم ضلالا بعيدا158

(وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ)جماعة(يَهۡدُونَ)به الناس فى تعليمهم إياهم و فتواهم لهم

(بِٱلۡحَقِّ)كقوله(مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ) عمران١١٣

(وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ)و يعدلون به بينهم فى الحكم بينهم بقضاياهم كما قال تعالى:-

(وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ) السجدة: ٢٤

و فى هذا فضيلة لأمة موسىﷺ و أن اللّه تعالى جعل منهم هداة يهدون بأمره.

و كأن الإتيان بهذه الآية الكريمة فيه نوع احتراز مما تقدم فإنه تعالى ذكر فيما تقدم جملة من معايب بنى إسرائيل المنافية للكمال المناقضة للهداية فربما توهم متوهم أن هذا يعم جميعهم فذكر تعالى أن منهم طائفة مستقيمة هادية مهدية159

وَقَطَّعۡنَٰهُمُ ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمٗاۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۚ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡغَمَٰمَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذۡ قِيلَ لَهُمُ ٱسۡكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ وَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ وَقُولُواْ حِطَّةٞ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطِيٓـَٰٔتِكُمۡۚ سَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡۚ كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿١٦٣﴾

(وَقَطَّعۡنَٰهُمُ)قسمناهم(ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمٗاۚ)قبيلة متعارفة متوالفة كل بنى رجل من أولاد يعقوب قبيلة.

(وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ)طلبوا منه(قَوۡمُهُۥٓ)أن يدعو اللّه تعالى أن يسقيهم ماء يشربون منه و تشرب منه مواشيهم و ذلك لأنهم–و اللّه أعلم–فى محل قليل الماء. فأوحى اللّه لموسى إجابة لطلبتهم:–

(أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ)يحتمل أنه حجر معين و يحتمل أنه اسم جنس يشمل أي حجر كان فضربه

(فَٱنۢبَجَسَتۡ)انفجرت من ذلك الحجر

(مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ)جارية سارحة.

(قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۚ)أى: قد قسم على كل قبيلة من تلك القبائل الاثنتى عشرة و جعل لكل منهم عينا فعلموها و اطمأنواو استراحوا من:–التعب و المزاحمة و المخاصمة و هذا من تمام نعمة اللّه عليهم.

(وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡغَمَٰمَ)فكان يسترهم من حر الشمس

(وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَنَّ)شىء يشبه الصمغ طعمه كالحلوى

(وَٱلسَّلۡوَىٰۖ)طائر السمان و هو لحم طير من أنواع الطيور و ألذها

فجمع اللّه لهم بين الظلال و الشراب و الطعام الطيب من:–الحلوى و اللحوم على وجه الراحة و الطمأنينة و قيل لهم:–

(كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا)حين لم يشكروا اللّه و لم يقوموا بما أوجب اللّه عليهم

(وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ)

حيث فوتوها كل خير و عرضوها للشر و النقمة و هذا كان مدة لبثهم فى التيه160

(وَإِذۡ قِيلَ لَهُمُ ٱسۡكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ)ادخلوها لتكون وطنا لكم و مسكنا و هى (إيلياء)

أى:–قرية كانت كثيرة الأشجار غزيرة الثمار رغيدة العيش فلذلك أمرهم اللّه(وَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ)

(وَقُولُواْ)حين تدخلون الباب:–(حِطَّةٞ)احطط عنا خطايانا و اعف عنا(حبة فى شعيرة)

(وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا)أى:خاضعين لربكم مستكينين لعزته شاكرين لنعمته فأمرهم بالخضوع

و سؤال المغفرة و وعدهم على ذلك مغفرة ذنوبهم و الثواب العاجل و الآجل فقال:–

(نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطِيٓـَٰٔتِكُمۡۚ سَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ)من خير الدنيا و الآخرة فلم يمتثلوا هذا الأمر الإلهى161

بل(فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ)أى: عصوا اللّه و استهانوا بأمره

(قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ)فقالوا بدل طلب المغفرة

*و إذا بدلوا القول– مع يسره و سهولته–فتبديلهم للفعل من باب أولى و لهذا دخلوا و هم يزحفون على أستاههم.

(فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ)حين خالفوا أمر اللّه و عصوه

(رِجۡزٗا)عذابا شديدا إما الطاعون و إما غيره(مِّنَ ٱلسَّمَآءِ)من العقوبات السماوية.

و ما ظلمهم اللّه بعقابه و إنما كان ذلك(بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ)يخرجون من طاعة الله إلى معصيته

من غير ضرورة ألجأتهم و لا داع دعاهم سوى الخبث و الشر الذى كان كامنا فى نفوسهم162

(وَسۡـَٔلۡهُمۡ)اسأل بنى إسرائيل(عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ)على شاطئ البحر الأحمر

فى حال تعديهم و عقاب اللّه إياهم.

تحايل بنى اسرائيل فى صيد السبت و عقابهم 163-171

(إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ)

و كان اللّه تعالى قد أمرهم أن يعظموه و يحترموه و لا يصيدوا فيه صيدا فابتلاهم اللّه و امتحنهم

(إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا)كثيرة طافية ظاهرة على وجه البحر

(وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا)إذا ذهب يوم السبت(لَا تَأۡتِيهِمۡۚ)تذهب فى البحر فلا يرون منها شيئا

(كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ)

ففسقهم هو الذي أوجب أن يبتليهم اللّه و أن تكون لهم هذه المحنة و إلا فلو لم يفسقوا لعافاهم اللّه

و لما عرضهم للبلاء و الشر فتحيلوا على الصيد فكانوا يحفرون لها حفرا و ينصبون لها الشباك

فإذا جاء يوم السبت و وقعت فى تلك الحفر و الشباك لم يأخذوها فى ذلك اليوم

فإذا جاء يوم الأحد أخذوها و كثر فيهم ذلك

و انقسموا ثلاث فرق:-

1-معظمهم اعتدوا و تجرؤوا و أعلنوا بذلك.

2-و فرقة أعلنت بنهيهم و الإنكار عليهم(١٦٣)

◄ الخوف من العقوبة

﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾ (الأعراف: ١٦٣).

عن عِكْرِمَةَ رَحِمَهُ اللهُ قال: جئتُ ابن عباسٍ يوما وهو يبكي، وإذا المصحف في حِجْرِهِ فأعظمتُ أن أدنو منه، ثُم لم أزل على ذلك حتى تقدمتُ فجلستُ، فقلتُ: ما يبكيكَ يا ابن عباس جعلني الله فِدَاكَ؟ فقال: هؤلاء الوَرَقَات، قال: وإذا هو في سورة الأعراف، وذَكَرَ أصحاب السَّبْتِ ، ثم قرأ ابن عباس «فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس»، قال: فأرى الذين نَهَوْا قد نَجَوْا، ولا أرى الآخرينَ ذُكِرُوا، ونحن نرى أشياءَ ننكرها ولا نقول فيها. قال: قلت: جعلني الله فداك؛ ألا ترى أنهم قد كَرِهُوا ما هم عليه وخالفوهم وقالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ [١]، قال: فأمر لي فكُسِيتُ ثوبين غليظين[٢].

وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَـٰقُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ أَنَّهُمْ صَارُوا إِلَى ثَلَاثِ فِرَقٍ:

1-فِرْقَةٌ ارْتَكَبَتِ الْمَحْذُورَ وَ احْتَالُوا عَلَى اصْطِيَادِ السَّمَكِ يَوْمَ السَّبْتِ

2-وَ فِرْقَةٌ نَهَتْ عَنْ ذَلِكَ وَ أَنْكَرَتْ وَ اعْتَزَلَتْهُمْ.

3-وَ فِرْقَةٌ سَكَتَتْ فَلَمْ تَفْعَلْ وَ لَمْ تَنْهَ

وَ لَكِنَّهَا قَالَتْ لِلْمُنْكِرَةِ:-(وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ)و فرقة اكتفت بإنكار أولئك عليهم و نهيهم لهم و قالوا لهم:–

(لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا)

أنهم يقولون: لا فائدة فى وعظ من اقتحم محارم اللّه و لم يصغ للنصيح بل استمر على اعتدائه و طغيانه فإنه لا بد أن يعاقبهم اللّه إما بهلاك أو عذاب شديد

(قَالُوا۟)فقال الواعظون الْمُنْكِرة:–نعظهم و ننهاهم

(مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ)أى: لنعذر فيهم فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا مِنَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَ النَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ

(وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)يتركون ما هم فيه من المعصية فلا نيأس من هدايتهم فربما نجع فيهم الوعظ و أثر فيهم اللوم.

*و هذا المقصود الأعظم من إنكار المنكر ليكون معذرة و إقامة حجة على المأمور المنهى و لعل اللّه أن يهديه فيعمل بمقتضى ذلك الأمر و النهى164

(فَلَمَّا نَسُوا۟)تركوا(مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ)و استمروا على غيهم و اعتدائهم.

(أَنجَيْنَا)من العذاب(ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ)

و هكذا سنة اللّه فى عباده أن العقوبة إذا نزلت نجا منها الآمرون بالمعروف و الناهون عن المنكر.

(وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟)و هم الذين اعتدوا فى السبت

(بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ)شديد(بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ165

و أما الفرقة الأخرى التى قالت للناهين:-(لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ)

فاختلف المفسرون فى نجاتهم و هلاكهم و الظاهر أنهم كانوا من الناجين:-

1-لأن اللّه خص الهلاك بالظالمين و هو لم يذكر أنهم ظالمون.

*فدل على أن العقوبة خاصة بالمعتدين فى السبت

2-و لأن الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر فرض كفاية إذا قام به البعض سقط عن الآخرين

فاكتفوا بإنكار أولئك و لأنهم أنكروا عليهم بقولهم:-(لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ)

فأبدوا من غضبهم عليهم ما يقتضي أنهم كارهون أشد الكراهة لفعلهم و أن اللّه سيعاقبهم أشد العقوبة.

(فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ)قسوا فلم يلينوا و لا اتعظوا

(قُلْنَا لَهُمْ)قولا قدريا:-(كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ)فانقلبوا بإذن اللّه قردة و أبعدهم اللّه من رحمته١٦٦

ثم ذكر ضرب الذلة و الصغار على من بقى منهم فقال:-(وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ)أعلم إعلاما صريحا:-

(لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ ۗ)يهينهم و يذلهم(سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ)

*هِىَ الْجِزْيَةُ وَ الَّذِينَ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ:-مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺوَ أُمَّتُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

*قُلْتُ:ثُمَّ آخِرُ أَمْرِهِمْ أَنَّهُمْ يَخْرُجُونَ أَنْصَارَ الدَّجَّالِ فَيَقْتُلُهُمُ الْمُسْلِمُونَ مَعَ عِيسَى ﵇وَ ذَلِكَ آخِرَ الزَّمَانِ

(إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ)لمن عصاه حتى إنه يعجل له العقوبة فى الدنيا.

(وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ)لمن تاب إليه و أناب يغفر له الذنوب و يستر عليه العيوب

(رَّحِيمٌ)يرحمه بأن يتقبل منه الطاعات و يثيبه عليها بأنواع المثوبات

و قد فعل اللّه بهم ما أوعدهم به فلا يزالون في ذل و إهانة تحت حكم غيرهم لا تقوم لهم راية و لا ينصر لهم عَلَمٌ١٦٧

(وَقَطَّعْنَـٰهُمْ)فرقناهم و مزقناهم(فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ)طوائف و فرقا بعد ما كانوا مجتمعين

(مِّنْهُمُ ٱلصَّـٰلِحُونَ)القائمون بحقوق اللّه و حقوق عباده

(وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ)دون الصلاح إما مقتصدون و إما ظالمون لأنفسهم

(وَبَلَوْنَـٰهُم)اختبرناهم على عادتنا و سنتنا

(بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ)بالِيسر و بالعسر و بِالرَّخَاءِ وَ الشِّدَّةِ وَ الرَّغْبَةِ وَ الرَّهْبَةِ وَ الْعَافِيَةِ وَ الْبَلَاءِ

(لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ)عما هم عليه مقيمون من الردى يراجعون ما خلقوا له من الهدى فلم يزالوا بين صالح و طالح و مقتصد ١٦٨

(فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ)حتى خلف من بعدهم خلف(زاد شرهم)

(وَرِثُواْ)بعدهم دراسة(ٱلۡكِتَٰبَ)التوراة

و صار المرجع فيه إليهم و صاروا يتصرفون فيه بأهوائهم و تبذل لهم الأموال ليفتوا و يحكموا بغير الحق و فشت فيهم الرشوة.

(يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ)يَعْتَاضُونَ عَنْ بذل الحق و نشره بعَرَض الحياة الدنيا و يسرفون أَنْفُسَهُمْ وَ يَعِدُونَهَا بِالتَّوْبَةِ وَ كُلَّمَا لاحَ لَهُمْ مِثْلُ الْأَوَّلِ وَقَعُوا فِيهِ تَمَنَّوْا عَلَى اللَّهِ أَمَانِيَّ و غرّة يَغْتَرُّونَ بِهَا

(وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا)مقرين بأنه ذنب و أنهم ظلمة:—و هذا قول خال من الحقيقة

فإنه ليس استغفارا و طلبا للمغفرة على الحقيقة.فلو كان ذلك لندموا على ما فعلوا و عزموا على أن لا يعودوا

(وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٌ مِّثۡلُهُۥ)و لكنهم—إذا أتاهم عرض آخر و رشوة أخرى—(يَأۡخُذُوهُۚ)

فاشتروا بآيات اللّه ثمنا قليلا و استبدلوا الذى هو أدنى بالذي هو خير

لَا يَشْغَلُهُمْ شَيْءٌ عَنْ شَيْءٍ وَ لَا يَنْهَاهُمْ شَيْءٌ عَنْ ذَلِكَ كُلَّمَا هَفَّ لَهُمْ شَيْءٌ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا أَكَلُوهُ وَ لَا يُبَالُونَ حَلَالًا كَانَ أَوْ حَرَامًا.

*وَ قَالَ قَتَادَةُ فِي:-(فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ) مريم: ٥٩ أَيْ:-وَ اللَّهِ لَخَلَفُ سُوءٍ وَرِثُوا الْكِتَابَ بَعْدَ أَنْبِيَائِهِمْ وَ رُسُلِهِمْ وَرَّثَهُمُ اللَّهُ وَ عَهِدَ إِلَيْهِمْ وَ قَالَ اللَّهُ فِي آيَةٍ أُخْرَى:{فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ}[مَرْيَم:59]

قال اللّه تعالى فى الإنكار عليهم و بيان جراءتهم:—

(أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ)

*يَقُولُ تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَيْهِمْ فِي صَنِيعِهِمْ هَذَا مَعَ مَا أَخَذَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْمِيثَاقِ لَيُبَيِّنُنَّ الْحَقَّ لِلنَّاسِ وَ لَا يَكْتُمُونَهُ كَقَوْلِهِ:{وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ} [آلِ عِمْرَانَ:187]

*فما بالهم يقولون عليه غير الحق اتباعا لأهوائهم و ميلا مع مطامعهم.

(و) الحال أنهم قد (وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ)فليس عليهم فيه إشكال بل قد أَتَوْا أمرهم متعمدين و كانوا فى أمرهم مستبصرين و هذا أعظم للذنب و أشد للوم و أشنع للعقوبة و هذا من نقص عقولهم و سفاهة رأيهم بإيثار الحياة الدنيا على الآخرة و لهذا قال:—

(وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ)

ما حرم اللّه عليهم من المآكل التى تصاب و تؤكل رشوة على الحكم بغير ما أنزل اللّه و غير ذلك من أنواع المحرمات.

*يُرَغِّبُهُمْ تَعَالَى فِي جَزِيلِ ثَوَابِهِ وَ يُحَذِّرُهُمْ مِنْ وَبِيلِ عِقَابِهِ أَيْ:-
وَ ثَوَابِي وَ مَا عِنْدِي خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى الْمَحَارِمَ وَ تَرَكَ هَوَى نَفْسِهِ وَ أَقْبَلَ عَلَى طَاعَةِ رَبِّهِ.

(أَفَلَا تَعۡقِلُونَ)

أَفَلَيسَ لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ اعْتَاضُوا بعَرَض الدُّنْيَا عَمَّا عِنْدِى عَقْلٌ يَرْدَعُهُمْ عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ السَّفَهِ وَ التَّبْذِيرِ؟
ثُمَّ أَثْنَى تَعَالَى عَلَى مَنْ تَمَسَّكَ بِكِتَابِهِ الَّذِى يَقُودُهُ إِلَى اتِّبَاعِ رَسُولِهِ مُحَمَّدٍﷺ كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ فِيهِ

أى:أفلا يكون لكم عقول توازن بين ما ينبغى إيثاره و ما ينبغى الإيثار عليه و ما هو أولى بالسعى إليه و التقديم له على غيره. فخاصية العقل النظر للعواقب.

*و أما من نظر إلى عاجل طفيف منقطع يفوت نعيما عظيما باقيا فأنى له العقل و الرأى؟ ﴿١٦٩﴾

*و إنما العقلاء حقيقة من وصفهم اللّه بقوله:-

(وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ)يتمسكون(بِٱلۡكِتَٰبِ)علما و عملا اعْتَصَمُوا بِهِ وَ اقْتَدَوْا بِأَوَامِرِهِ وَ تَرَكُوا زَوَاجِرَهُ

فيعلمون ما فيه من الأحكام و الأخبار التى علمها أشرف العلوم.

و يعلمون بما فيها من الأوامر التى هى قرة العيون و سرور القلوب و أفراح الأرواح و صلاح الدنيا و الآخرة.

(وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ)و من أعظم ما يجب التمسك به من المأمورات إقامة الصلاة ظاهرا و باطنا

و لهذا خصها الله بالذكر لـ:-

1-فضلها و شرفها 2-و كونها ميزان الإيمان 3-و إقامتها داعية لإقامة غيرها من العبادات.

و لما كان عملهم كله إصلاحا قال:-

(إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ)فى أقوالهم و أعمالهم و نياتهم مصلحين لأنفسهم و لغيرهم.

و هذه الآية و ما أشبهها دلت على أن اللّه بعث رسله عليهم الصلاة و السلام بالصلاح لا بالفساد و بالمنافع لا بالمضار و أنهم بعثوا بصلاح الدارين فكل من كان أصلح كان أقرب إلى اتباعهم﴿١٧٠﴾

۞ وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ فَوۡقَهُمۡ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٞ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمۡ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوۡ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةٗ مِّنۢ بَعۡدِهِمۡۖ أَفَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِيۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾

ثم قال تعالى:-(وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ فَوۡقَهُمۡ)حين امتنعوا من قبول ما فى التوراة لما ثقلت عليهم و أبوا أن يقروا بها

*رفعته الملائكة فوق رؤوسهم فألزمهم اللّه العمل و نتق فوق رءوسهم الجبل فصار فوقهم

(كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٞ)سحابة تظلهم(وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمۡ)و قيل لهم:-(خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ)بجد و اجتهاد.

(وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ)مَا فِيهِ دراسة و مباحثة و اتصافا بالعمل به(لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ)إذا فعلتم ذلك.

*يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ اسْتَخْرَجَ ذُرِّيَّةَ بَنِي آدَمَ مِنْ أَصْلَابِهِمْ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّ اللَّهَ رَبُّهُمْ وَ مَلِيكُهُمْ وَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ. كَمَا أَنَّهُ تَعَالَى فَطَرَهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَجَبَلَهُمْ عَلَيْهِ قَالَ تَعَالَى:

{فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ[الرُّوم:30]

العهد على بنى آدم و قصة بلعام بن عوراء 172-179

*البخارى4775 -عن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ:-قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:-

«مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ كَمَا تُنْتَجُ البَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ» ثُمَّ يَقُولُ:{فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ}[الروم: 30]

*مسلم 2658-قال النبىﷺقال الله تعالى:-وَ إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ وَ إِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ وَ حَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ

*البخارى3334 عَنْ أَنَسٍ يَرْفَعُهُ:-إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لِأَهْوَنِ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا:

لَوْ أَنَّ لَكَ مَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ كُنْتَ تَفْتَدِي بِهِ(من الافتداء وهو خلاص نفسه من الهلاك الذي وقع فيه)؟

قَالَ:-نَعَمْ قَالَ:-فَقَدْ سَأَلْتُكَ مَا هُوَ أَهْوَنُ مِنْ هَذَا وَ أَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ

(ظهر والصلب كل ظهر له فقار و المراد أنه أخذ عليه العهد منذ خلق أباه آدم.) أَنْ لاَ تُشْرِكَ بِي فَأَبَيْتَ إِلَّا الشِّرْكَ(رفضت الأمر و أتيت بالشرك) "

*أحمد 2455 -عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺعَنِ النَّبِيِّ ﷺقَالَ:

أَخَذَ اللهُ الْمِيثَاقَ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ بِنَعْمَانَ-يَعْنِى عَرَفَةَ-فَأَخْرَجَ مِنْ صُلْبِهِ كُلَّ ذُرِّيَّةٍ ذَرَأَهَا فَنَثَرَهُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ كَالذَّرِّ ثُمَّ كَلَّمَهُمْ قِبَلًا " قَالَ: {أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ} [الأعراف: 173]

*الترمذى 3076 عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ﷛ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:-

لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ مَسَحَ ظَهْرَهُ فَسَقَطَ مِنْ ظَهْرِهِ كُلُّ نَسَمَةٍ هُوَ خَالِقُهَا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ

وَ جَعَلَ بَيْنَ عَيْنَيْ كُلِّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ وَبِيصًا مِنْ نُورٍ ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى آدَمَ فَقَالَ: أَىْ رَبِّ مَنْ هَؤُلَاءِ؟

قَالَ: هَؤُلَاءِ ذُرِّيَّتُكَ فَرَأَى رَجُلًا مِنْهُمْ فَأَعْجَبَهُ وَبِيصُ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ فَقَالَ: أَىْ رَبِّ مَنْ هَذَا؟

فَقَالَ: هَذَا رَجُلٌ مِنْ آخِرِ الْأُمَمِ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ يُقَالُ لَهُ دَاوُدُ فَقَالَ:-رَبِّ كَمْ جَعَلْتَ عُمْرَهُ؟

قَالَ: سِتِّينَ سَنَةً قَالَ: أَيْ رَبِّ زِدْهُ مِنْ عُمْرِى أَرْبَعِينَ سَنَةً فَلَمَّا قُضِىَ عُمْرُ آدَمَ جَاءَهُ مَلَكُ الْمَوْتِ

فَقَالَ: أَوَ لَمْ يَبْقَ مِنْ عُمْرِي أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَوَ لَمْ تُعْطِهَا ابْنَكَ دَاوُدَ قَالَ:-

فَجَحَدَ آدَمُ فَجَحَدَتْ ذُرِّيَّتُهُ وَ نُسِّيَ آدَمُ فَنُسِّيَتْ ذُرِّيَّتُهُ وَ خَطِئَ آدَمُ فَخَطِئَتْ ذُرِّيَّتُهُ.

*فَهَذِهِ الْأَحَادِيثُ دَالَّةٌ عَلَى أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ اسْتَخْرَجَ ذُرِّيَّةَ آدَمَ مِنْ صُلْبِهِ وَ مَيَّزَ بَيْنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ

وَ أَمَّا الْإِشْهَادُ عَلَيْهِمْ هُنَاكَ بِأَنَّهُ رَبُّهُمْ فَمَا هُوَ إِلَّا فِي حَدِيثِ كُلْثُومِ بْنِ جَبْرٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَ فِي حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُمَا

وَ قَدْ بَيَّنَّا أَنَّهُمَا مَوْقُوفَانِ لَا مَرْفُوعَانِ كَمَا تَقَدَّمَ.

وَ مِنْ ثَمَّ قَالَ قَائِلُونَ مِنَ السَّلَفِ وَ الْخَلَفِ:-إِنَّ الْمُرَادَ بِهَذَا الْإِشْهَادِ إِنَّمَا هُوَ فَطْرهم عَلَى التَّوْحِيدِ

كَمَا تَقَدَّمَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ وَ عِيَاضِ بْنِ حمار الْمُجَاشعى وَ مِنْ رِوَايَةِ الْحَسَنِ عَنِ الْأَسْوَدِ بْنِ سَرِيع.

وَ قَدْ فَسَّرَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ الْآيَةَ بِذَلِكَ قَالُوا:-وَ لِهَذَا قَالَ:{وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ}

وَ لَمْ يَقُلْ: "مِنْ آدَمَ" {مِن ظُهُورِهِمْ} وَ لَمْ يُقَلْ:-"مِنْ ظَهْرِهِ"{ذُرِّيَّاتِهِمْ} أَىْ:-

جَعَلَ نَسْلَهُمْ جِيلًا بَعْدَ جِيلٍ وَ قَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَهُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ} [الْأَنْعَام:165]

وَ قَالَ:{وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ}[النَّمْل:62]وَ قَالَ:-{كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ} [الْأَنْعَام:133]

ثُمَّ قَالَ:{وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى}أَىْ: -أَوْجَدَهُمْ شَاهِدِينَ بِذَلِكَ قَائِلِينَ لَهُ حَالًا وَقَالًا.

وَ الشَّهَادَةُ تَارَةً تَكُونُ بِالْقَوْلِ كَمَا قَالَ{قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا} [الْأَنْعَام:130] الْآيَةَ

وَ تَارَةً تَكُونُ حَالًا كَمَا قَالَ تَعَالَى:-{مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ}[التَّوْبَة:17]

أَيْ:-حَالُهُمْ شَاهِدٌ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ لَا أَنَّهُمْ قَائِلُونَ ذَلِكَ وَ كَذَلِكَ قَوْلُهُ:-{وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ} [الْعَادِيَات:7]

كَمَا أَنَّ السُّؤَالَ تَارَةً يَكُونُ بِالْقَالِ وَ تَارَةً يَكُونُ بِالْحَالِ كَمَا فِي قَوْلِهِ:-{وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ} [إِبْرَاهِيم:34]

قَالُوا: وَ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِهَذَا هَذَا أَنْ جَعَلَ هَذَا الْإِشْهَادَ حُجَّةً عَلَيْهِمْ فِي الْإِشْرَاكِ

فَلَوْ كَانَ قَدْ وَقَعَ هَذَا كَمَا قَالَهُ مَنْ قَالَ لَكَانَ كُلُّ أَحَدٍ يَذْكُرُهُ لِيَكُونَ حُجَّةً عَلَيْهِ.

فَإِنْ قِيلَ: إِخْبَارُ الرَّسُولِ بِهِ كَافٍ فِي وُجُودِه

فَالْجَوَابُ:-أَنَّ الْمُكَذِّبِينَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ يُكَذِّبُونَ بِجَمِيعِ مَا جَاءَتْهُمْ بِهِ الرُّسُلُ مِنْ هَذَا وَ غَيْرِهِ.

وَ هَذَا جَعَلَ حُجَّةً مُسْتَقِلَّةً عَلَيْهِمْ فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ الْفِطْرَةُ الَّتِى فُطِروا عَلَيْهَا مِنَ الْإِقْرَارِ بِالتَّوْحِيدِ؛

وَ لِهَذَا قَالَ: {أَنْ يَقُولُوا}أَىْ: لِئَلَّا يَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ:-{إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا}أَىْ: عَنِ التَّوْحِيدِ

{غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا} الْآيَةَ.

يقول تعالى: (وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ)أى:أخرج من أصلابهم

(ذُرِّيَّتَهُمۡ)و جعلهم يتناسلون و يتوالدون قرنا بعد قرن.

(و)حين أخرجهم من بطون أمهاتهم و أصلاب آبائهم(وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ)

أى:–قررهم بإثبات ربوبيته بما أودعه في فطرهم من الإقرار بأنه ربهم و خالقهم و مليكهم.

(قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ)أقررنا بذلك فإن اللّه تعالى فطر عباده على الدين الحنيف القيم.

فكل أحد فهو مفطور على ذلك و لكن الفطرة قد تغير و تبدل بما يطرأ عليها من العقائد الفاسدة

و لهذا (قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ)

أى: إنما امتحناكم حتى أقررتم بما تقرر عندكم من أن اللّه تعالى ربكم خشية أن تنكروا يوم القيامة فلا تقروا بشيء من ذلك و تزعمون أن حجة اللّه ما قامت عليكم و لا عندكم بها علم بل أنتم غافلون عنها لاهون.

فاليوم قد انقطعت حجتكم و ثبتت الحجة البالغة للّه عليكم. أو تحتجون أيضا بحجة أخرى ﴿١٧٢﴾

(أَوۡ)لئلا(تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ)من قبلنا

(وَكُنَّا ذُرِّيَّةٗ مِّنۢ بَعۡدِهِمۡۖ)و نقضوا العهد فاقتدينا بهم من بعدهم و حذونا حذوهم و تبعناهم فى باطلهم.

(أَفَتُهۡلِكُنَا)أفتعذبنا(بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ)الذين أبطلوا أعمالهم بجعلهم مع الله شريكا فى العبادة؟

*فقد أودع اللّه فى فطركم ما يدلكم على أن ما مع آبائكم باطل و أن الحق ما جاءت به الرسل و هذا يقاوم ما وجدتم عليه آباءكم و يعلو عليه.

*نعم قد يعرض للعبد من أقوال آبائه الضالين و مذاهبهم الفاسدة ما يظنه هو الحق

و ما ذاك إلا لإعراضه عن حجج اللّه و بيناته و آياته الأفقية و النفسية فإعراضه عن ذلك و إقباله على ما قاله المبطلون ربما صيره بحالة يفضل بها الباطل على الحق هذا هو الصواب فى تفسير هذه الآيات.

*و قد قيل: إن هذا يوم أخذ اللّه الميثاق على ذرية آدم حين استخرجهم من ظهره و أشهدهم على أنفسهم فشهدوا بذلك فاحتج عليهم بما أقروا به في ذلك الوقت على ظلمهم فى:–

كفرهم و عنادهم فى الدنيا و الآخرة و لكن ليس فى الآية ما يدل على هذا و لا له مناسبة و لا تقتضيه حكمة اللّه تعالو الواقع شاهد بذلك.

فإن هذا العهد و الميثاق الذى ذكروا أنه حين أخرج اللّه ذرية آدم من ظهره حين كانوا في عالم كالذر لا يذكره أحد و لا يخطر ببال آدمى فكيف يحتج اللّه عليهم بأمر ليس عندهم به خبر و لا له عين و لا أثر؟ ﴿١٧٣﴾

و لهذا لما كان هذا أمرا واضحا جليا قال تعالى:-

(وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ)نبين و نوضح(ٱلۡأٓيَٰتِ وَلَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ)إلى ما أودع اللّه فى فطرهم و إلى ما عاهدوا اللّه عليه فيرتدعون عن القبائح(١٧٤)

*عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﵁ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:-{وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِى آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ}الْآيَةَ قَالَ: هُوَ رَجُلٌ مِنْ بَنِى إِسْرَائِيلَ يُقَالُ لَهُ: بَلْعم بْنُ أبرَ.
*وَ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاس:هُوَ رَجُلٌ مِنْ مَدِينَةِ الْجَبَّارِينَ يُقَالُ لَهُ:-
"بَلْعَامُ"وَ كَانَ يَعْلَمُ اسْمَ اللَّهِ الْأَكْبَرَ.وَ قَالَ السُّدِّيُّ:-إِنَّ اللَّهَ لَمَّا انْقَضَتِ الْأَرْبَعُونَ سَنَةً الَّتِى قَالَ اللَّهُ:-
{فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً}[الْمَائِدَة:26] بَعَثَ يُوشَعَ بْنَ نُونٍ نَبِيًّا فَدَعَا بَنِي إِسْرَائِيلَ فَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ نَبِيٌّ وَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَمَرَهُ أَنْ يُقَاتِلَ الْجَبَّارِينَ فَبَايَعُوهُ وَ صَدَّقُوهُ.
وَ انْطَلَقَ رَجُلٌ مِنْ بَنِى إِسْرَائِيلَ يُقَالُ لَهُ: "بَلْعَمُ" وَ كَانَ عَالَمًا يَعْلَمُ الِاسْمَ الْأَعْظَمَ الْمَكْتُومَ فَكَفَرَ-لَعَنَهُ اللَّهُ-وَ أَتَى الْجَبَّارِينَ وَ قَالَ لَهُمْ:-لَا تَرْهَبُوا بَنِي إِسْرَائِيلَ فَإِنِّى إِذَا خَرَجْتُمْ تُقَاتِلُونَهُمْ أَدْعُوا عَلَيْهِمْ دَعْوَةً فَيَهْلِكُونَ! وَ كَانَ عِنْدَهُمْ فِيمَا شَاءَ مِنَ الدُّنْيَا غَيْرَ أَنَّهُ كَانَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَأْتِىَ النِّسَاءَ يُعَظِّمُهُنَّ فَكَانَ يَنْكِحُ أَتَانًا لَهُ وَ هُوَ الَّذِى قَالَ اللَّهُ تعالى{فَانْسَلَخَ مِنْهَا}

يقول الله لنبيه ﷺ:-(وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ)علمناه(ءَايَٰتِنَا)كتاب اللّه فصار العالم الكبير و الحبر النحرير

(فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا)انسلخ من الاتصاف الحقيقى بالعلم بآيات اللّه

فإن العلم بذلك يصير صاحبه متصفا بمكارم الأخلاق و محاسن الأعمال و يرقى إلى أعلى الدرجات و أرفع المقامات

فترك هذا كتاب اللّه وراء ظهره و نبذ الأخلاق التي يأمر بها الكتاب و خلعها كما يخلع اللباس.فلما انسلخ منها

(فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ)تسلط عليه حين خرج من الحصن الحصين و صار إلى أسفل سافلين فأزه إلى المعاصى أزا.

(فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ)بعد أن كان من الراشدين المرشدين.و هذا لأن اللّه تعالى خذله و وكله إلى نفسه (١٧٥)

فلهذا قال تعالى:-(وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا)مِنَ التَّدَنُّسِ عَنْ قَاذُورَاتِ الدُّنْيَا بِالْآيَاتِ الَّتِى آتَيْنَاهُ إِيَّاهَا بأن نوفقه للعمل بها فيرتفع فى الدنيا و الآخرة فيتحصن من أعدائه.

(وَلَٰكِنَّهُۥٓ)فعل ما يقتضى الخذلان فـ(أَخۡلَدَ)مَالَ إِلَى زِينَةِ الدُّنْيَا وَ زَهْرَتِهَا وَ أَقْبَلَ عَلَى لَذَّاتِهَا وَ نَعِيمِهَا وَ غَرَّتْهُ كَمَا غَرَّتْ غَيْرَهُ مِنْ غَيْرِ أُولِي الْبَصَائِرِ وَ النُّهَى

(إِلَى ٱلۡأَرۡضِ)أى:إلى الشهوات السفلية و المقاصد الدنيوية.

(وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ)و ترك طاعة مولاه

*وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ يَسَارٍ عَنْ سَالِمٍ أَبِي النَّضْرِ أَنَّهُ حَدَّثَ:-
أَنَّ مُوسَى﵇لَمَّا نَزَلَ فِي أَرْضِ بَنِى كَنْعَانَ مِنْ أَرْضِ الشَّام أَتَى قَوْمُ بَلْعَامَ إِلَيْهِ فَقَالُوا لَهُ:-
هَذَا مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ فِي بَنِى إِسْرَائِيلَ قَدْ جَاءَ يُخْرِجُنَا مِنْ بِلَادِنَا وَ يَقْتُلُنَا وَ يُحِلُّهَا بَنِى إِسْرَائِيلَ وَ إِنَّا قَوْمُكَ

وَ لَيْسَ لَنَا مَنْزِلٌ وَ أَنْتَ رَجُلٌ مُجَابُ الدَّعْوَةِ فَاخْرُجْ فَادْعُ اللَّهَ عَلَيْهِمْ.
قَالَ: وَيْلَكُمْ! نَبِيُّ اللَّهِ مَعَهُ الْمَلاَئِكَةُ وَ الْمُؤْمِنُونَ كَيْفَ أَذْهَبُ أَدْعُو عَلَيْهِمْ وَ أَنَا أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا أَعْلَمُ؟!
قَالُوا لَهُ: مَا لَنَا مِنْ مَنْزِلٍ! فَلَمْ يَزَالُوا بِهِ يُرَقِّقُونَهُ وَ يَتَضَرَّعُونَ إِلَيْهِ حَتَّى فَتَنُوهُ فَافْتُتِنَ
فَرَكِبَ حَمَارَةً لَهُ مُتَوَجِّهًا إِلَى الْجَبَلِ الَّذِى يُطْلِعُهُ عَلَى عَسْكَرِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَ هُوَ جَبَلُ حُسْبان
فَلَمَّا سَارَ عَلَيْهَا غَيْرَ كَثِيرٍ رَبَضَتْ بِهِ فنزل عنها فضربها حتى إذا أَذْلَقَهَا قَامَتْ فَرَكِبَهَا.
فَلَمْ تَسِرْ بِهِ كَثِيرًا حَتَّى رَبَضَتْ بِهِ فَضَرَبَهَا حَتَّى إِذَا أَذْلَقَهَا أَذِنَ اللَّهُ لَهَا فَكَلَّمَتْهُ حُجَّةً عَلَيْهِ
فَقَالَتْ: وَيْحَكَ يَا بَلْعَمُ: أَيْنَ تَذْهَبُ؟ أَمَا تَرَى الْمَلاَئِكَةَ أَمَامِى تَرُدُّنِى عَنْ وَجْهِى هَذَا؟
أَتَذْهَبُ إِلَى نَبِيِّ اللَّهِ وَ الْمُؤْمِنِينَ لِتَدْعُوَ عَلَيْهِمْ؟
فَلَمْ يَنْزِعْ عَنْهَا يَضْرِبُهَا فَخَلَّى اللَّهُ سَبِيلَهَا حِينَ فَعَلَ بِهَا ذَلِكَ.
فَانْطَلَقَتْ بِهِ حَتَّى إِذَا أَشْرَفَتْ بِهِ عَلَى رَأْسِ حُسْبَانَ عَلَى عَسْكَرِ مُوسَى وَ بَنِي إِسْرَائِيلَ جَعَلَ يَدْعُو عَلَيْهِمْ
وَلَا يَدْعُو عَلَيْهِمْ بِشَرٍّ إِلَّا صَرَفَ اللَّهُ لِسَانَهُ إِلَى قَوْمِهِ وَلَا يَدْعُو لِقَوْمِهِ بِخَيْرٍ إِلَّا صَرَفَ لِسَانَهُ إِلَى بَنِى إِسْرَائِيلَ.
فَقَالَ لَهُ قَوْمُهُ: أَتَدْرِي يَا بَلْعَمُ مَا تَصْنَعُ؟ إِنَّمَا تَدْعُو لَهُمْ وَ تَدْعُو عَلَيْنَا!
قَالَ: فَهَذَا مَا لَا أَمْلِكُ هَذَا شَيْءٌ قَدْ غَلَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ!
قَالَ: وَ انْدَلَعَ لِسَانُهُ فَوَقَعَ عَلَى صَدْرِهِ فَقَالَ لَهُمْ: قَدْ ذَهَبَتْ مِنِّى الْآنَ الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةُ
وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الْمَكْرُ وَ الْحِيلَةُ فَسَأَمْكُرُ لَكُمْ وَ أَحْتَالُ جَمِّلوا النِّسَاءَ وَ أَعْطُوهُنَّ السِّلَعَ
ثُمَّ أَرْسِلُوهُنَّ إِلَى الْعَسْكَرِ يَبِعْنَهَا فِيهِ وَ مُرُوهُنَّ فَلَا تَمْنَعُ امْرَأَةٌ نَفْسَهَا مِنْ رَجُلٍ أَرَادَهَا
فَإِنَّهُمْ إِنْ زَنَى رَجُلٌ مِنْهُمْ وَاحِدٌ كُفِيتموهم فَفَعَلُوا. فَلَمَّا دَخَلَ النِّسَاءُ الْعَسْكَرَ
مَرَّتِ امْرَأَةٌ مِنَ الْكَنْعَانِيِّينَ اسْمُهَا "كَسْبَى ابْنَةُ صُورَ رَأْسِ أُمَّتِهِ"بِرَجُلٍ مِنْ عُظَمَاءِ بَنِى إِسْرَائِيلَ
وَ هُوَ "زَمْرَى بْنُ شَلُومَ" رَأْسُ سِبْطِ بَنِى سَمْعَانَ بْنِ يَعْقُوبُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ
فَقَامَ إِلَيْهَا فَأَخَذَ بِيَدِهَا حِينَ أَعْجَبَهُ جَمَالُهَا ثُمَّ أَقْبَلَ بِهَا حَتَّى وَقَفَ بِهَا عَلَى مُوسَى عليه السلام
فَقَالَ:-إِنِّي أَظُنُّكَ سَتَقُولُ هَذَا حَرَامٌ عَلَيْكَ؟ قَالَ: أَجَلْ هِيَ حَرَامٌ عَلَيْكَ لَا تَقْرَبْهَا.
قَالَ: فَوَاللَّهِ لَا نُطِيعُكَ فِي هَذَا.ثُمَّ دَخَلَ بِهَا قُبَّتَهُ فَوَقَعَ عَلَيْهَا.
وَأَرْسَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الطَّاعُونَ فِي بَنِى إِسْرَائِيلَ وَ كَانَ فِنْحَاصُ بْنُ الْعَيْزَارِ بْنِ هَارُونَ صَاحِبَ أَمْرِ مُوسَى
وَ كَانَ غَائِبًا حِينَ صَنَعَ زَمْرَى بْنُ شَلُومَ مَا صَنَعَ فَجَاءَ وَ الطَّاعُونُ يَجُوسُ فِي بَنِى إِسْرَائِيلَ
فَأُخْبِرَ الْخَبَرَ فَأَخَذَ حَرْبَتَهُ وَ كَانَتْ مِنْ حَدِيدٍ كُلُّهَا ثُمَّ دَخَلَ الْقُبَّةَ وَ هُمَا مُتَضَاجِعَانِ فَانْتَظَمَهُمَا بِحَرْبَتِهِ
ثُمَّ خَرَجَ بِهِمَا رَافِعَهُمَا إِلَى السَّمَاءِ وَ الْحَرْبَةُ قَدْ أَخَذَهَا بِذِرَاعِهِ وَ اعْتَمَدَ بِمِرْفَقِهِ عَلَى خَاصِرَتِهِ
وَ أَسْنَدَ الْحَرْبَةَ إِلَى لَحْيَيْهِ-وَ كَانَ بِكْرَ الْعَيْزَارِ-وَ جَعَلَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ هَكَذَا نَفْعَلُ بِمَنْ يَعْصِيكَ.
وَ رُفِعَ الطَّاعُونُ فَحُسِبَ مَنْ هَلَكَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الطَّاعُونِ فِيمَا بَيْنُ أَنْ أَصَابَ زَمْرَى الْمَرْأَةَ إِلَى أَنْ قَتَلَهُ
فِنْحَاصُ فَوَجَدُوهُ قَدْ هَلَكَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا-وَ الْمُقَلِّلُ لَهُمْ يَقُولُ:-عِشْرُونَ أَلْفًا-فِي سَاعَةٍ مِنَ النَّهَارِ.
فَمِنْ هُنَالِكَ تُعْطِى بَنُو إِسْرَائِيلَ وَلَدَ فِنْحَاصَ مِنْ كُلِّ ذَبِيحَةٍ ذَبَحُوهَا الْقُبَّةَ وَ الذِّرَاعَ و اللَّحَى-لِاعْتِمَادِهِ
بِالْحَرْبَةِ عَلَى خَاصِرَتِهِ وَ أَخْذِهِ إِيَّاهَا بِذِرَاعِهِ وَ إِسْنَادِهِ إِيَّاهَا إِلَى لَحْيَيْهِ -
وَ الْبِكْرَ مِنْ كُلِّ أَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ لِأَنَّهُ كَانَ بِكْرَ أَبِيهِ الْعَيْزَارِ.فَفِى بَلْعَامَ بْنِ بَاعُورَاءَ أَنْزَلَ اللَّهُ:-
{وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِى آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ}-إِلَى قَوْلِهِ:{لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ}

(فَمَثَلُهُ)فى شدة حرصه على الدنيا و انقطاع قلبه إليها

(كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ)

(تطرده و تزجره و ليس من وضع الأحمال عليه إذ الكلاب لا يحمل عليها بهذا المعنى)

*اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي مَعْنَاهُ:-

1- فَأَمَّا عَلَى سِيَاقِ ابْنِ إِسْحَاقَ عَنْ سَالِمِ بن أبي النضر:-
أن بلعاما انْدَلَعَ لِسَانُهُ عَلَى صَدْرِهِ-فَتَشْبِيهُهُ بِالْكَلْبِ فِي لَهْثِهِ فِي كِلْتَا حَالَتَيْهِ إِنْ زُجِرَ وَ إِنْ تُرِكَ.

2-وَ قِيلَ:مَعْنَاهُ: فَصَارَ مِثْلَهُ فِي ضَلَالِهِ وَ اسْتِمْرَارِهِ فِيهِ وَ عَدَمِ انْتِفَاعِهِ بِالدُّعَاءِ إِلَى الْإِيمَانِ وَ عَدَمِ الدُّعَاءِ كَالْكَلْبِ فِي لَهْثِهِ فِي حَالَتَيْهِ إِن حَمَلْتَ عَلَيْهِ وَ إِنَّ تَرَكْتَهُ هُوَ يَلْهَثُ فِي الْحَالَيْنِ فَكَذَلِكَ هَذَا لَا يَنْتَفِعُ بِالْمَوْعِظَةِ وَ الدَّعْوَةِ إِلَى الْإِيمَانِ وَلَا عَدَمِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى:{سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}[البَقَرَة:6]

*أى:لا يزال لاهثا فى كل حال و هذا لا يزال حريصا حرصا قاطعا قلبه لا يسد فاقته شيء من الدنيا.

* فَمَثَلُ هذا الرجل مثل الكلب إن تطرده أو تتركه يُخْرِج لسانه فى الحالين لاهثًا فكذلك الذى انسلخ من آيات الله يظل على كفره إن اجتهدْتَ فى دعوتك له أو أهملته

(ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ)

بعد أن ساقها اللّه إليهم فلم ينقادوا لها بل كذبوا بها و ردوها لهوانهم على اللّه و اتباعهم لأهوائهم بغير هدى من اللّه

(فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ)

أخبار الأمم الماضية ففى إخبارك بذلك أعظم معجزة لعل قومك يتدبرون فيما جئتهم به فيؤمنوا لك واضرب لهم الأمثال

(لَعَلَّهُمۡ)بالعبر و الآيات(يَتَفَكَّرُونَ)فإذا تفكروا علموا و إذا علموا عملوا.

*لَعَلَّ بَنِى إِسْرَائِيلَ الْعَالِمِينَ بِحَالِ بَلْعَامَ وَ مَا جَرَى لَهُ فِي إِضْلَالِ اللَّهِ إِيَّاهُ وَ إِبْعَادِهِ مِنْ رَحْمَتِهِ بِسَبَبِ أَنَّهُ اسْتَعْمَلَ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ -فِي تَعْلِيمِهِ الِاسْمَ الْأَعْظَمَ الَّذِى إِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى وَ إِذَا دُعِىَ بِهِ أَجَابَ-
فِي غَيْرِ طَاعَةِ رَبِّهِ بَلْ دَعَا بِهِ عَلَى حِزْبِ الرَّحْمَنِ وَ شِعْبِ الْإِيمَانِ أَتْبَاعِ عَبْدِهِ وَ رَسُولِهِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ كَلِيمِ اللَّهِ مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ عليه السلام ﴿١٧٦﴾

(سَآءَ)قَبُحَ(مَثَلًا)مَثَلُ(ٱلۡقَوۡمُ)

(ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا)و ظلم نفسه بأنواع المعاصى فإن مثلهم مثل السوء و هذا الذى آتاه اللّه آياته
أَيْ:-سَاءَ مَثَلُهُمْ أَنْ شُبِّهُوا بِالْكِلَابِ الَّتِى لَا هِمَّةَ لَهَا إِلَّا فِي تَحْصِيلِ أَكْلَةٍ أَوْ شَهْوَةٍ
فَمَنْ خَرَجَ عَنْ حَيِّزِ الْعِلْمِ وَ الْهُدَى وَ أَقْبَلَ عَلَى شَهْوَةِ نَفْسِهِ وَ اتَّبِعْ هَوَاهُ:-
صَارَ شَبِيهًا بِالْكَلْبِ وَ بِئْسَ الْمَثَلُ مَثَلُهُ

(وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ)

*البخارى2622 عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ:-قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:-«لَيْسَ لَنَا مَثَلُ السَّوْءِ (لا ينبغى لنا أن نتصف بصفة ذميمة نشابه فيها أخس الحيوانات فى أخس الأحوال)الَّذِى يَعُودُ فِي هِبَتِهِ كَالْكَلْبِ يَرْجِعُ فِي قَيْئِهِ»

*يحتمل أن المراد به شخص معين قد كان منه ما ذكره اللّه فقص اللّه قصته تنبيها للعباد.

*و يحتمل أن المراد بذلك أنه اسم جنس و أنه شامل لكل من آتاه اللّه آياته فانسلخ منها.

و فى هذه الآيات الترغيب في العمل بالعلم و أن ذلك رفعة من اللّه لصاحبه و عصمة من الشيطان

و الترهيب من عدم العمل به و أنه نزول إلى أسفل سافلين و تسليط للشيطان عليه

و فيه أن اتباع الهوى و إخلاد العبد إلى الشهوات يكون سببا للخذلان﴿١٧٧﴾

ثم قال تعالى مبينا أنه المنفرد بالهداية و الإضلال:-

(مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ)بأن يوفقه للخيرات و يعصمه من المكروهات و يعلمه ما لم يكن يعلم

(فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِى)حقا لأنه آثر هدايته تعالى(وَمَن يُضۡلِلۡ)فيخذله و لا يوفقه للخير

(فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ)لأنفسهم و أهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين﴿١٧٨﴾

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾

يقول تعالى مبينا كثرة الغاوين الضالين المتبعين إبليس اللعين:—(وَلَقَدْ ذَرَأْنَا)أنشأنا و بثثنا و هَيَّأْنَا

(لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ)بِعَمَلِ أَهْلِهَا يَعْمَلُونَ فصارت البهائم أحسن حالة منهم.

* مسلم (2662) عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ قَالَتْ:-تُوُفِّيَ صَبِيٌّ فَقُلْتُ:-

طُوبَى لَهُ عُصْفُورٌ مِنْ عَصَافِيرِ الْجَنَّةِ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:-

أَوَ لَا تَدْرِينَ أَنَّ اللهَ خَلَقَ الْجَنَّةَ وَ خَلَقَ النَّارَ فَخَلَقَ لِهَذِهِ أَهْلًا وَ لِهَذِهِ أَهْلًا

*مسلم 2643-قال النبي ﷺ ثُمَّ يُرْسَلُ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ وَ يُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ:-

بِكَتْبِ رِزْقِهِ وَ أَجَلِهِ وَ عَمَلِهِ وَ شَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ

(لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا)أي: لا يصل إليها فقه و لا علم إلا مجرد قيام الحجة.

(وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا)ما ينفعهم بل فقدوا منفعتها و فائدتها.

(وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا)سماعا يصل معناه إلى قلوبهم.

*لَيْسَ يَنْتَفِعُونَ بِشَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْجَوَارِحِ الَّتِي جَعَلَهَا اللهُ سَبَبًا لِلْهِدَايَةِ كَمَا قَالَ{وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} [الأَحْقَاف:26] وَ قَالَ تَعَالَى:{صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ} [البَقَرَة:18] هَذَا فِي حَقِّ الْمُنَافِقِينَ

وَ قَالَ فِي حَقِّ الْكَافِرِينَ: {صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ} [البَقَرَة:171]

وَ لَمْ يَكُونُوا صُمًّا بُكْمًا عُمْيًا إِلَّا عَنِ الْهُدَى كَمَا قَالَ تَعَالَى:-{وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ}[الأنفال:23]وقَالَ: {فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ}[الحَجّ:46] وَ قَالَ:-

{وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ36 وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ}[الزُّخْرُف]

(أُوْلَٰٓئِكَ)الذين بهذه الأوصاف القبيحة

(كَٱلۡأَنۡعَٰمِ)أي:البهائم التى فقدت العقول و هؤلاء آثروا ما يفنى على ما يبقى فسلبوا خاصية العقل.

*هَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَا يَسْمَعُونَ الْحَقَّ وَ لَا يَعُونَهُ وَ لَا يُبْصِرُونَ الْهُدَى كَالْأَنْعَامِ السَّارِحَةِ الَّتِي لَا تَنْتَفِعُ بِهَذِهِ الْحَوَاسِّ مِنْهَا إِلَّا فِي الَّذِى يَعِيشُهَا مِنْ ظَاهِرِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا قَالَ{وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ}[الْبَقَرَة:171] أَيْ: وَ مَثَلُهُمْ-فِي حَالِ دُعَائِهِمْ إِلَى الْإِيمَانِ-كَمَثَلِ الْأَنْعَامِ إِذَا دَعَاهَا رَاعِيهَا لَا تَسْمَعُ إِلَّا صَوْتَهُ وَ لَا تَفْقَهُ مَا يَقُولُ

(بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ)من البهائم فإن الأنعام مستعملة فيما خلقت له و لها أذهان تدرك بها مضرتها من منفعتها فلذلك كانت أحسن حالا منهم.

(أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ)الذين غفلوا عن أنفع الأشياء غفلوا عن الإيمان باللّه و طاعته و ذكره.

خلقت لهم الأفئدة و الأسماع و الأبصار لتكون عونا لهم على القيام بأوامر اللّه و حقوقه فاستعانوا بها على ضد هذا المقصود.

فهؤلاء حقيقون بأن يكونوا ممن ذرأ اللّه لجهنم و خلقهم لها فخلقهم للنار و بأعمال أهلها يعملون.

وأما من استعمل هذه الجوارح في عبادة اللّه و انصبغ قلبه بالإيمان باللّه و محبته و لم يغفل عن اللّه فهؤلاء أهل الجنة و بأعمال أهل الجنة يعملو179

حقائق و توجيهات 180-188

(وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ)

*البخارى6410 عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺرِوَايَةً(أى عن النبى ﷺ)قَالَ:«لِلَّهِ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ اسْمًا مِائَةٌ إِلَّا وَاحِدًا لَا يَحْفَظُهَا (عن ظهر قلب وهذا يستلزم تكرارها وهو المقصود. و قيل حفظها الخضوع لمعانيها والعمل بما تقتضيه)أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَ الجَنَّةَ وَ هُوَ وَتْرٌ يُحِبُّ الوَتْرَ»

(أكثر قبولا لما كان وترا ولذلك جعله في كثير من العبادات و المخلوقات كالصلوات الخمس والطواف سبعا و السموات و غير ذلك و ندب التثليث في كثير من الأعمال كالوضوء والغسل)

*ثُمَّ لِيُعْلَمْ أَنَّ الْأَسْمَاءَ الْحُسْنَى لَيْسَتْ مُنْحَصِرَةً فِي التِّسْعَةِ وَ التِّسْعِينَ بِدَلِيلِ مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ

*أحمد4318 - عَنْ الْقَاسِمِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَبْدِ اللهِ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:-

مَا قَالَ عَبْدٌ قَطُّ إِذَا أَصَابَهُ هَمٌّ وَ حَزَنٌ:-

اللهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ وَ ابْنُ عَبْدِكَ ابْنُ أَمَتِكَ نَاصِيَتِي بِيَدِكَ مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي وَ نُورَ صَدْرِي وَ جِلَاءَ حُزْنِي وَ ذَهَابَ هَمِّي إِلَّا أَذْهَبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هَمَّهُ وَ أَبْدَلَهُ مَكَانَ حُزْنِهِ فَرَحًا "

قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَعَلَّمَ هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ؟قَالَ:-" أَجَلْ يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهُنَّ أَنْ يَتَعَلَّمَهُنَّ "

*هذا بيان لعظيم جلاله وسعة أوصافه بأن له الأسماء الحسنى أى:–له كل اسم حسن

و ضابطه:–أنه كل اسم دال على صفة كمال عظيمة و بذلك كانت حسنى فإنها لو دلت على غير صفة بل كانت علما محضا لم تكن حسنى

*و كذلك لو دلت على صفة ليست بصفة كمال بل إما صفة نقص أو صفة منقسمة إلى المدح و القدح لم تكن حسنى فكل اسم من أسمائه دال على جميع الصفة التى اشتق منها مستغرق لجميع معناها.

و ذلك نحو (العليم):–

الدال على أن له علما محيطا عاما لجميع الأشياء فلا يخرج عن علمه مثقال ذرة في الأرض و لا فى السماء.

و (كالرحيم):–الدال على أن له رحمة عظيمة واسعة لكل شيء.

و كـــــ(القدير):–الدال على أن له قدرة عامة لا يعجزها شيء و نحو ذلك.

و من تمام كونها«حسنى»أنه لا يدعى إلا بها و لذلك قال:–(فَادْعُوهُ بِهَا)

و هذا شامـــــل:–

1–لدعاء العبادة2–و دعاء المسألة

فيدعى فى كل مطلوب بما يناسب ذلك المطلوب فيقول الداعى مثلا اللّهم اغفر لى و ارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم و تب عَلَيَّ يا تواب و ارزقنى يا رزاق و الطف بى يا لطيف و نحو ذلك.

(وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ)

و حقيقة الإلحاد الميل بها عما جعلت له إما بـــ:–

1–أن يسمى بها من لا يستحقها كتسمية المشركين بها لآلهتهم

إِلْحَادُ الْمُلْحِدِينَ:-اشْتَقُّوا "اللّاتَ" مِنَ اللَّهِ وَ اشْتَقُّوا "الْعُزَّى" مِنَ الْعَزِيزِ و مناة من المنان

2–و إما بنفى معانيها و تحريفها و أن يجعل لها معنى ما أراده اللّه و لا رسوله

3–و إما أن يشبه بها غيرها

فالواجب أن يحذر الإلحاد فيها و يحذر الملحدون فيها و قد ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ

(أن للّه تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة)

(سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)عقوبة و عذابا على إلحادهم فى أسمائه﴿١٨٠﴾

(وَمِمَّنْ خَلَقْنَا)أى: و من جملة من خلقنا

(أُمَّةٌ)فاضلة كاملة في نفسها مكملة لغيرها

(يَهْدُونَ)أنفسهم و غيرهم

(بِٱلۡحَقِّ)فيعلمون الحق و يعملون به و يعلّمونه و يدعون إليه و إلى العمل به.

(وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ)بين الناس في أحكامهم إذا حكموا فى:-الأموال و الدماء و الحقوق و المقالات و غير ذلك

و هؤلاء هم أئمة الهدى و مصابيح الدجى

و هم الذين أنعم اللّه عليهم بـــــــ:-

1-الإيمان 2-و العمل الصالح3-و التواصى بالحق و التواصى بالصبر

و هم الصديقون الذين مرتبتهم تلى مرتبة الرسالة و هم فى أنفسهم مراتب متفاوتة كل بحسب حاله و علو منزلته

فسبحان من يختص برحمته من يشاء و اللّه ذو الفضل العظيم.

*البخارى3641عن مُعَاوِيَةَ يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «لاَ يَزَالُ مِنْ أُمَّتِى أُمَّةٌ قَائِمَةٌ بِأَمْرِ اللَّهِ لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَ لاَ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ»
قَالَ عُمَيْرٌ: فَقَالَ مَالِكُ بْنُ يُخَامِرَ:-قَالَ مُعَاذٌ: وَ هُمْ بِالشَّأْمِ

فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: هَذَا مَالِكٌ يَزْعُمُ أَنَّهُ سَمِعَ مُعَاذًا يَقُولُ: وَ هُمْ بِالشَّأْمِ ﴿١٨١﴾

وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ

إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ

وَأَنۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقۡتَرَبَ أَجَلُهُمۡۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ ﴿١٨٥﴾

مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥۚ وَيَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿١٨٦﴾

أي:و الذين كذبوا بآيات اللّه الدالة على صحة ما جاء به محمد ﷺمن الهدى فردوها و لم يقبلوها.

(سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ)بأن يدر لهم الأرزاق ﴿١٨٢﴾

(وَأُمۡلِي)أُطول و أُمْهِلُ(لَهُمۡۚ)ما هم فيه حتى يظنوا أنهم لا يؤخذون و لا يعاقبون فيزدادون كفرا و طغيانا

و شرا إلى شرهم و بذلك تزيد عقوبتهم و يتضاعف عذابهم فيضرون أنفسهم من حيث لا يشعرون

*كقوله(فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ) الأنعام: ٤٤

و لهذا قال:(إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ)قوى بليغ شديد لا يُدْفع بقوة و لا بحيلة183

(أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْۗ)أَوَ لَمْ يُعْمِلُوا أفكارهم (مَا بِصَاحِبِهِم)محمد ﷺ(مِّن جِنَّةٍۚ)جنون

و ينظروا:هل فى صاحبهم الذى يعرفونه و لا يخفى عليهم من حاله شىء هل هو مجنون؟

فلينظروا فى أخلاقه و هديه و دله و صفاته و ينظروا في ما دعا إليه فلا يجدون فيه من الصفات إلا أكملها

و لا من الأخلاق إلا أتمها و لا من العقل و الرأى إلا ما فاق به العالمين و لا يدعو إلا لكل خير

و لا ينهى إلا عن كل شر.أفبهذا يا أولي الألباب من جنة؟

أم هو الإمام العظيم و الناصح المبين و الماجد الكريم و الرءوف الرحيم؟

*كقوله(وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ)التكوير: ٢٢ (مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ) القلم: ٢ و لهذا قال:–(إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ)

أى: يدعو الخلق إلى ما ينجيهم من العذاب و يحصل لهم الثواب174

(أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ)

فإنهم إذا نظروا إليها وجدوها أدلة دالة على توحيد ربها و على ما له من صفات الكمال.

(و) كذلك لينظروا إلى جميع (وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ)

فإن جميع أجزاء العالم يدل أعظم دلالة على اللّه و قدرته و حكمته و سعة رحمته و إحسانه و نفوذ مشيئته و غير ذلك من صفاته العظيمة الدالة على تفرده بالخلق و التدبير الموجبة لأن يكون هو المعبود المحمود المسبح الموحد المحبوب.

(وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ)

أى:لينظروا فى خصوص حالهم و ينظروا لأنفسهم قبل أن يقترب أجلهم و يفجأهم الموت و هم فى غفلة معرضون فلا يتمكنون حينئذ من استدراك الفارط.

(فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ)بعد هذا الكتاب الجليل(يُؤْمِنُونَ) إذا لم يؤمنوا بالقرآن ؟

«أبكتب الكذب و الضلال؟ أم بحديث كل مفتر دجال؟ و لكن الضال لا حيلة فيه و لا سبيل إلى هدايته.

*فَبِأَيِّ تَخْوِيفٍ وَ تَحْذِيرٍ وَ تَرْهِيبٍ-بَعْدَ تَحْذِيرِ مُحَمَّدٍ وَ تَرْهِيبِهِ الَّذِى أَتَاهُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فِي آيِ كِتَابِهِ - يُصَدِّقُونَ إِنْ لَمْ يُصَدِّقُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ الَّذِى جَاءَهُمْ بِهِ مُحَمَّدٌﷺ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؟185

و لهذا قال تعالى(مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ)متحيرين يترددون لا يخرجون منه و لا يهتدون إلى حق.

*مَنْ كُتِبَ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَإِنَّهُ لَا يَهْدِيهِ أَحَدٌ وَ لَوْ نَظَرَ لِنَفْسِهِ فِيمَا نَظَرَ فَإِنَّهُ لَا يُجْزَى عَنْهُ شَيْئًا

{وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا}[الْمَائِدَةِ:41]

قَالَ تَعَالَى:{قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ}[يُونُسَ:101]

(وَيَذَرُهُمْ)يتركهم(فِي طُغْيَٰنِهِمْ)كفرهم(يَعْمَهُونَ)يتحيرون و يترددون186

*يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ:–(يَسْـَٔلُونَكَ)أى:المكذبون لك المتعنتون

(عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ)أى:متى(مُرْسَىٰهَا)وقتها الذى تجىء به و متى تحل بالخلق؟

*كقوله(يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا) الأحزاب: ٦٣

*كقوله (وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ) الأنبياء: ٣٨

(قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ)أى: إنه تعالى مختص بعلمها

(لَا يُجَلِّيهَا)يظهرها(لِوَقۡتِهَآ)الذى قدر أن تقوم فيه (إِلَّا هُوَۚ)

(ثَقُلَتۡ)ثَقُلَ و خفى علمها (فِي)على أهل(ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ)و اشتد أمرها أيضا عليهم فهم من الساعة مشفقون.

(لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗۗ)فجأة من حيث لا تشعرون لم يستعدوا لها و لم يتهيأوا لقيامها.

(يَسۡـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ)عالم(عَنۡهَاۖ)بها

أى: هم حريصون على سؤالك عن الساعة كأنك مستحف عن السؤال عنها و لم يعلموا أنك – لكمال علمك بربك و ما ينفع السؤال عنه – غير مبال بالسؤال عنها و لا حريص على ذلك فَلِمَ لا يقتدون بك؟

و يكفون عن الاستحفاء عن هذا السؤال الخالي من المصلحة المتعذر علمه فإنه لا يعلمها نبي مرسل و لا ملك مقرب.و هي من الأمور التي أخفاها الله عن الخلق لكمال حكمته و سعة علمه.

*البخارى حديث:[50]قال النبي ﷺ: مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ جبريل:-"مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ

*أى لَسْتُ أَعْلَمَ بِهَا مِنْكَ وَ لَا أَحَدَ أَعْلَمُ بِهَا مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ قَرَأَ النَّبِيُّ ﷺ:{إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ}

(قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ)

فلذلك حرصوا على ما لا ينبغي الحرص عليه و خصوصا مثل حال هؤلاء الذين يتركون السؤال عن الأهم و يدعون ما يجب عليهم من العلم ثم يذهبون إلى ما لا سبيل لأحد أن يدركه و لا هم مطالبون بعلمه.

*البخارى6506 - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺقَالَ:-
لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا فَإِذَا طَلَعَتْ فَرَآهَا النَّاسُ آمَنُوا أَجْمَعُونَ فَذَلِكَ حِينَ:
{لاَ يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا} [الأنعام: 158]
وَ لَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَ قَدْ نَشَرَ الرَّجُلاَنِ ثَوْبَهُمَا(ليتبايعاه) بَيْنَهُمَا فَلاَ يَتَبَايَعَانِهِ وَ لاَ يَطْوِيَانِهِ وَ لَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَ قَدِ انْصَرَفَ الرَّجُلُ بِلَبَنِ لِقْحَتِهِ(الناقة الحلوب)فَلاَ يَطْعَمُهُ وَ لَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَ هُوَ يَلِيطُ(يصلح ويطين)حَوْضَهُ فَلاَ يَسْقِي فِيهِ وَ لَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَ قَدْ رَفَعَ أَحَدُكُمْ أُكْلَتَهُ(لقمته)إِلَى فِيهِ فَلاَ يَطْعَمُهَا(فلا يأكلها ويحول بينه وبين أكلها قيام الساعة فجأةوبأسرع من دفع اللقمة إلى الفم)(١٨٧)

الاعجاز العلمى فى (لهم قلوب لا يفقهون بها) الرابط

الحقائق العلمية فى هذا الصدد:

في خبر نشرته قناة mbc قبل أيام مفاده أن مجموعة من الأطباء الأمريكان وجدوا مجموعة من الخلايا العصبية في جدار القلب و أن هذه الخلايا مسئولة عن اتخاذ القرار فى الجسم و فى برنامج وثائقى عرضته أخيراً إحدى المحطات الأجنبية

ورد خبر يتحدث عن اكتشاف جديد مفاده أن القلب هو أحد أهم مراكز الذكريات و المواهب و القدرات الفكرية لدى الإنسان و أن هذا الدور ليس حكراً على الدماغ

*أما البرهان القاطع على هذه الفرضية:–فمنحته إحدى عمليات زرع القلب الغريبة التى تمت أخيراً
حيث أودع قلب شاعر توفى حديثاً صَدْرَ سائق شاحنات هجر المدرسة في الخامسة عشرة من عمره
و بعد الجراحة شرع سائق الشاحنات ذو الجسد المغطى بالأوشام فى كتابة القصائد
و لدى مقارنة نصوص هذا السائق بقصائد الشاعر الراحل الذى وهبه قلبه تبين أنها متشابهة للغاية
و قد فسر العلماء ذلك بأن القلب يحتوى على خلايا عصبيه تؤدى دور دماغ صغير موصول بالدماغ الرئيسى
تتيح له أن يخزن الذكريات و الميول الفكرية لا المشاعر فحسب ما يجعل متلقي القلب الموهوب يصاب
بعدوى سلوك الواهب و شخصيته و طباعه و ذوقه بل و حتى ثقافته

وجه الإعجاز:

وإن كانت الحقائق العلمية ما زالت في طور التجدد والاكتشاف إلا أن ما وصلنا منها يشير إلى صحة القول بأن
العقل هو في القلب و ليس في الدماغ و هذا ما أشارت إليه الآيات الكريمات بمجموعها
و إن كان بعضها أدل من بعض بهذا الخصوص و لا أدل من قوله تعالى:(أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ
يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)[الحج: 46]
على أن العقل الذي هو مناط التكليف وسيد الجسد و قائده إنما هو فى القلب فقوله:
(فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا)لا يحتاج إلى كثير تأمل فى أن القلب هو محل العقل
و إنما جاءت الاكتشافات العلمية الحديثة بمثابة برهان جديد من نوع البراهين العلمية التى تؤكد المعنى القديم
و تزيده وضوحاً و سطوعاً و ليكون هذا الدليل الجديد صرخة فى آذان الذين يصمّون أسماعهم عن القول الحق
شعارهم في ذلك مثل سلفهم من الجاحدين(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ)
[فصلت:26]و بالمناسبة فإنه و فى نفس السورة تجد أن الله سبحانه بشرنا بأنه سيرينا ما به تقوم الحجة على
الكافرين المعاندين فقال:–

(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)[فصلت: 53]
لأن سماع القرآن يفتح الآفاق أمام من قرأه و تأمل به و يبشر المؤمنين بأن الله الذى أنزل هذا القرآن و حفظه
سيجعل فيه الآيات و البراهين والأدلة لكل زمان و مكان و لا يستثنى به طائفة دون أخرى من غير أن تقوم
عليهم الحجة سواء كانوا علمانيين لا يؤمنون إلا بالمادة ومشتقاتها أو كانوا ملحدين لا يؤمنون إلا بالعلم
و اكتشافاته و هكذا فإن كلام الخالق هو سر الأسرار و كنز لكل عاقل
فالحمد لله الذى جعل لمن آمن به الحجة القاطعة و المدد الإيمانى بهذا الحق الذى (لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ
وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) [فصلت: 42]

قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ۞ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثۡقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ لَهُمۡ نَصۡرٗا وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمۡۚ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾

(قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا)فإني فقير مدبر لا يأتيني خير إلا من اللّه و لا يدفع عنى الشر إلا هو و ليس لي من العلم إلا ما علمنى اللّه تعالى.

(وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ)لفعلت الأسباب التى أعلم أنها تنتج لى المصالح و المنافع و لحذرت من كل ما يفضى إلى سوء و مكروه لعلمى بالأشياء قبل كونها و علمى بما تفضي إليه.

* كما قال{عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا26 إِلا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا}[الجِنّ]

(وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ)و لكنى–لعدم علمى–قد ينالنى ما ينالنى من السوء

و قد يفوتنى ما يفوتنى من مصالح الدنيا و منافعها فهذا أدل دليل على أنى لا علم لى بالغيب.

(إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ)أنذر العقوبات الدينية و الدنيوية و الأخروية و أبين الأعمال المفضية إلى ذلك و أحذر منها.

(وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ)بالثواب العاجل و الآجل ببيان الأعمال الموصلة إليه و الترغيب فيها

و لكن ليس كل أحد يقبل هذه البشارة و النذارة و إنما ينتفع بذلك و يقبله المؤمنون

و هذه الآيات الكريمات مبينة جهل من يقصد النبى ﷺو يدعوه لحصول نفع أو دفع ضر.

فإنه ليس بيده شيء من الأمر و لا ينفع من لم ينفعه اللّه و لا يدفع الضر عمن لم يدفعه اللّه عنه

و لا له من العلم إلا ما علمه اللّه تعالى

و إنما ينفع من قبل ما أرسل به من البشارة و النذارة و عمل بذلك فهذا نفعه ﷺ الذى فاق نفع الآباء و الأمهات و الأخلاء و الإخوان بما حث العباد على كل خير و حذرهم عن كل شر و بينه لهم غاية البيان و الإيضاح.

طبيعة المشركين و الرد عليهم 189-198

*كَمَا قَالَ تَعَالَى:-{فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا} [مَرْيَم:97] 188

(هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم)أيها الرجال و النساء المنتشرون فى الأرض على كثرتكم و تفرقكم.

(مِّن نَّفۡسٍ وَٰحِدَةٍ)و هو آدم أبو البشر ﷺ

(وَجَعَلَ مِنۡهَا)خلق من آدم(زَوۡجَهَا)زوجته حواء

(لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَا ۖ)ليألفها كما قَالَ:-

{وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً}[الرُّوم:21]

فَلَا أُلْفَةَ بَيْنَ زَوْجين أَعْظَمُ مِمَّا بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ وَ لِهَذَا ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّ السَّاحِرَ رُبَّمَا تَوَصَّلَ بِكَيْدِهِ إِلَى التَّفْرِقَةِ بَيْنَ الْمَرْءِوَ زَوْجِهِ.

*لأجل أن يسكن إليها لأنها إذا كانت منه حصل بينهما من المناسبة و الموافقة ما يقتضى سكون أحدهما إلى الآخر فانقاد كل منهما إلى صاحبه بزمام الشهوة.

(فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا)تجللها مجامعا لها قدَّر البارى أن يوجد من تلك الشهوة و ذلك الجماع النسل

و حينئذ(حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفًا فَمَرَّتۡ بِهِۦ ۖ)و ذلك فى ابتداء الحمل لا تحس به الأنثى و لا يثقلها.

(فَلَمَّآ)استمرت بحملهو (أَثۡقَلَت)به حين كبر فى بطنها

فحينئذ صار في قلوبهما الشفقة على الولد و على خروجه حيا صحيحا سالما لا آفة فيه

كذلك فـ(دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا)ولدا(صَٰلِحًا)أى:صالح الخلقة تامها لا نقص فيه

(لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ)﴿١٨٩﴾

(فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا)على وفق ما طلبا و تمت عليهما النعمة فيه

(جَعَلَا لَهُۥ)للّه

(شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ)أى فى ذلك الولد الذى انفرد اللّه بإيجاده و النعمة به وأقرَّ به أعين والديه فَعَبَّدَاه لغير اللّه

1–إما أن يسمياه بعبد غير اللّه كـ«عبد الحارث» و «عبد العزى» و «عبد الكعبة» و نحو ذلك

2–أو يشركا باللّه فى العبادة بعدما منَّ اللّه عليهما بما منَّ من النعم التى لا يحصيها أحد من العباد.

و هذا انتقال من النوع إلى الجنس فإن أول الكلام فى آدم و حواء

ثم انتقل إلى الكلام فى الجنس و لا شك أن هذا موجود فى الذرية كثيرا فلذلك قررهم اللّه على بطلان الشرك

و أنهم في ذلك ظالمون أشد الظلم سواء كان الشرك فى الأقوال أم فى الأفعال

فإن الخالق لهم من نفس واحدة الذى خلق منها زوجها و جعل لهم من أنفسهم أزواجا

ثم جعل بينهم من المودة و الرحمة ما يسكن بعضهم إلى بعض و يألفه و يلتذ به

ثم هداهم إلى ما به تحصل الشهوة و اللذة و الأولاد و النسل.

ثم أوجد الذرية في بطون الأمهات وقتا موقوتا تتشوف إليه نفوسهم و يدعون اللّه أن يخرجه سويا صحيحا

فأتم اللّه عليهم النعمة و أنالهم مطلوبهم.

أفلا يستحق أن يعبدوه و لا يشركوا به في عبادته أحدا و يخلصوا له الدين.و لكن الأمر جاء على العكس

(فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ) ﴿١٩٠﴾

(أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـًٔا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ)بَلْ هُمْ مَخْلُوقُونَ مَصْنُوعُونَ كَمَا قَالَ الْخَلِيلُ:-

{قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ95 وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ}[الصَّافَّاتِ]﴿١٩١﴾

(وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ لَهُمۡ)أى:–لعابديها(نَصۡرًا وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ)مِمَّنْ أَرَادَهُمْ بِسُوءٍ

فإذا كانت لا تخلق شيئا و لا مثقال ذرة بل هي مخلوقة و لا تستطيع أن تدفع المكروه عن من يعبدها بل و لا عن أنفسها فكيف تتخذ مع اللّه آلهة؟ إن هذا إلا أظلم الظلم و أسفه السفه.

كَمَا كَانَ الْخَلِيلُ ﷺ يَكْسِرُ أَصْنَامَ قَوْمِهِ و يهينُها غَايَةَ الْإِهَانَةِ كَمَا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْهُ فِي قَوْلِهِ:-

{فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ} [الصَّافَّاتِ:93] وَ قَالَ تَعَالَى: {فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ} [الأَنْبِيَاءِ:58]192

(وَإِن تَدۡعُوهُمۡ)و إن تدعوا أيها المشركون هذه الأصنام التى عبدتم من دون اللّه

(إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمۡۚ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ أَمۡ أَنتُمۡ صَـٰمِتُونَ)

*فصار الإنسان أحسن حالة منها لأنها لا تسمع و لا تبصر و لا تهدِى و لا تُهدى و كل هذا إذا تصوره اللبيب العاقل تصورا مجردا جزم ببطلان إلهيتها و سفاهة من عبدها﴿١٩٣﴾

ثم تحدى المشركين العابدين للأوثان فقال تعالى:–

(إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ)

أى:لا فرق بينكم و بينهم فكلكم عبيد للّه مملوكون فإن كنتم كما تزعمون صادقين فى أنها تستحق من العبادة شيئا

(فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَـٰدِقِينَ)فإن استجابوا لكم و حصلوا مطلوبكم

و إلا تبين أنكم كاذبون فى هذه الدعوى مفترون على اللّه أعظم الفرية﴿١٩٤﴾

(أَلَهُمۡ أَرۡجُلٌ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٍ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٌ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٌ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ)

و هذا لا يحتاج إلى التبيين فيه فإنكم إذا نظرتم إليها وجدتم صورتها دالة على أنه ليس لديها من النفع شىء فليس لها أرجل تمشى بها و لا أيد تبطش بها و لا أعين تبصر بها و لا آذان تسمع بها

فهي عادمة لجميع الآلات و القوى الموجودة فى الإنسان.

فإذا كانت لا تجيبكم إذا دعوتموها و هى عباد أمثالكم بل أنتم أكمل منها و أقوى على كثير من الأشياء فلأى شيء عبدتموها.

(قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ)أى:اجتمعوا أنتم و شركاؤكم(ثُمَّ كِيدُونِ)لإيقاع السوء و المكروه بى

(فَلَا تُنظِرُونِ)من غير إمهال و لا إنظار فإنكم غير بالغين لشىء من المكروه بى١٩٥

إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ (١٩٦) وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ
نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ (١٩٧) وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ
(١٩٨) خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ (١٩٩) وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ
فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠) إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ
تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ (٢٠١) وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ (٢٠٢)
وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ قُلۡ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ
هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ (٢٠٣) وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ
وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ (٢٠٤) وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ
وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ (٢٠٥) إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَۤ۩ (٢٠٦)

(إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ)الذى يتولانى فيجلب لى المنافع و يدفع عنى المضار

(ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ)الذى فيه الهدى و الشفاء و النور و هو من توليته و تربيته لعباده الخاصة الدينية.

(وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ)الذين صلحت نياتهم و أعمالهم و أقوالهم

كما قال(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

فالمؤمنون الصالحون–لما تولوا ربهم بالإيمان و التقوى و لم يتولوا غيره ممن لا ينفع و لا يضر–

1–تولاهم اللّه و لطف بهم 2–و أعانهم على ما فيه الخير و المصلحة لهم في دينهم و دنياهم

3–و دفع عنهم بإيمانهم كل مكروه كما قال(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا)196

*كقوله(إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ (٥٥)
إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ)هود

(وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ)

و هذا أيضا فى بيان عدم استحقاق هذه الأصنام التى يعبدونها من دون اللّه لشىء من العبادة لأنها ليس لها استطاعة و لا اقتدار فى نصر أنفسهم و لا في نصر عابديها و ليس لها قوة العقل و الاستجابة(١٩٧)

(وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ)فلو دعوتها إلى الهدى(لَا يَسۡمَعُواْۖ)لم تهتد و هى صور لا حياة فيها

*كقوله(إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ)فاطر: ١٤

*يُقَابِلُونَكَ بِعُيُونٍ مُصَوَّرَةٍ كَأَنَّهَا نَاظِرَةٌ وَ هِيَ جَمَادٌ وَ لِهَذَا عَامَلَهُمْ مُعَامَلَةَ مَنْ يَعْقِلُ لِأَنَّهَا عَلَى صُوَرٍ مُصَوَّرَةٍ كَالْإِنْسَانِ فَقَالَ{وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ}فَعَبَّرَ عَنْهَا بِضَمِيرِ مَنْ يَعْقِلُ.

(وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ)حقيقة

لأنهم صوروها على صور الحيوانات من الآدميين أو غيرهم و جعلوا لها أبصارا و أعضاء

فإذا رأيتها قلت:هذه حية فإذا تأملتها عرفت أنها جمادات لا حراك بها و لا حياة

فبأى رأى اتخذها المشركون آلهة مع اللّه؟

و لأى مصلحة أو نفع عكفوا عندها و تقربوا لها بأنواع العبادات؟

فإذا عرف هذا عرف أن المشركين و آلهتهم التى عبدوها لو اجتمعوا و أرادوا أن يكيدوا من تولاه فاطر الأرض

و السماوات متولى أحوال عباده الصالحين لم يقدروا على كيده بمثقال ذرة من الشر

لكمال عجزهم و عجزها و كمال قوة اللّه و اقتداره و قوة من احتمى بجلاله و توكل عليه

و قيل:إن معنى قوله(وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ)أن الضمير يعود إلى المشركين المكذبين للرسولﷺ

فتحسبهم ينظرون إليك يا رسول اللّه نظر اعتبار يتبين به الصادق من الكاذب و لكنهم لا يبصرون حقيقتك و

ما يتوسمه المتوسمون فيك من:-

الجمال و الكمال و الصدق﴿١٩٨﴾

(خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ)

توجيهات للأخلاق الفاضلة و حقيقة المؤمنين 199-206

هذه الآية جامعة لحسن الخلق مع الناس و ما ينبغى فى معاملتهم

(خُذِ ٱلۡعَفۡوَ)اليسير وتلبس بالسهولة من غير تشديد-خُذْ مَا عَفَا لَكَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَ مَا أَتَوْكَ بِهِ مِنْ شَيْءٍ فَخُذْهُ.
وَ كَانَ هَذَا قَبْلَ أَنْ تَنْزِلَ "بَرَاءَةٌ" بِفَرَائِضِ الصَّدَقَاتِ وَ تَفْصِيلِهَا وَ مَا انْتَهَتْ إِلَيْهِ الصَّدَقَاتُ.
*أَمَرَهُ اللَّهُ بِالْعَفْوِ وَ الصَّفْحِ عَنِ الْمُشْرِكِينَ عَشْرَ سِنِينَ ثُمَّ أَمَرَهُ بِالْغِلْظَةِ عَلَيْهِمْ.وَ اخْتَارَ هَذَا الْقَوْلَ ابْنُ جَرِيرٍ.
*فالذى ينبغى أن يعامل به الناس أن يأخذ العفو أى:-

ما سمحت به أنفسهم و ما سهل عليهم من الأعمال و الأخلاق فلا يكلفهم ما لا تسمح به طبائعهم بل:-

1-يشكر من كل أحد ما قابله به من قول و فعل جميل أو ما هو دون ذلك

2-و يتجاوز عن تقصيرهم و يغض طرفه عن نقصهم

3-و لا يتكبر على الصغير لصغره و لا ناقص العقل لنقصه و لا الفقير لفقره

4-بل يعامل الجميع باللطف و المقابلة بما :-تقتضيه الحال و تنشرح له صدورهم.

*البخارى4643-عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ﵄{خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بِالعُرْفِ}[الأعراف: 199]قَالَ:-مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَّا فِي أَخْلَاقِ النَّاسِ

(وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ)بالمستحسن من الأفعال

بكل قول حسن و فعل جميل و خلق كامل للقريب و البعيد فاجعل ما يأتى إلى الناس منك

إما تعليم علم أو حث على خير من صلة رحم أو برِّ والدين أو إصلاح بين الناس أو نصيحة نافعة أو رأى مصيب أو معاونة على بر و تقوى أو زجر عن قبيح أو إرشاد إلى تحصيل مصلحة دينية أو دنيوية

*البخارى4642-عَنِ الزُّهْرِيِّ قَالَ: أَخْبَرَنِي عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِىَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ:-«قَدِمَ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنِ بْنِ حُذَيْفَةَ فَنَزَلَ عَلَى ابْنِ أَخِيهِ الحُرِّ بْنِ قَيْسٍ وَ كَانَ مِنَ النَّفَرِ(الأشخاص)الَّذِينَ يُدْنِيهِمْ(يقربهم إليه في مجلسه)عُمَرُ وَ كَانَ القُرَّاءُ(الذين يقرؤون القرآن ويحفظونه ويفقهونه)أَصْحَابَ مَجَالِسِ عُمَرَ وَ مُشَاوَرَتِهِ (يشاورهم في الأمور) كُهُولًا(جمع كهل و هو الذى علاه الشيب و قيل هو من جاوز الثلاثين)كَانُوا أَوْ شُبَّانًا»

فَقَالَ عُيَيْنَةُ لِابْنِ أَخِيهِ:-يَا ابْنَ أَخِي هَلْ لَكَ وَجْهٌ عِنْدَ هَذَا الأَمِيرِ فَاسْتَأْذِنْ لِي عَلَيْهِ قَالَ:- سَأَسْتَأْذِنُ لَكَ عَلَيْهِ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «فَاسْتَأْذَنَ الحُرُّ لِعُيَيْنَةَ فَأَذِنَ لَهُ عُمَرُ» فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ قَالَ:- هِيْ يَا ابْنَ الخَطَّابِ فَوَاللَّهِ مَا تُعْطِينَا الجَزْلَ وَ لاَ تَحْكُمُ بَيْنَنَا بِالعَدْلِ فَغَضِبَ عُمَرُ حَتَّى هَمَّ أَنْ يُوقِعَ بِهِ (أن يعاقبه أى: العقوبة)فَقَالَ لَهُ الحُرُّ: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ:-

{خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بِالعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ} [الأعراف: 199]وَ إِنَّ هَذَا مِنَ الجَاهِلِينَ«وَ اللَّهِ مَا جَاوَزَهَا(لم يتعد العمل بها)عُمَرُ حِينَ تَلاَهَا عَلَيْهِ وَ كَانَ وَقَّافًا(أى إذا سمع آياته التزم أحكامه ووقف عندها ولم يتعدها) عِنْدَ كِتَابِ اللَّهِ»

(وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ)لا تقابلهم بفعلهم

و لما كان لا بد من أذية الجاهل أمر اللّه تعالى أن يقابل الجاهل بالإعراض عنه و عدم مقابلته بجهله فمن آذاك بقوله أو فعله لا تؤذه و من حرمك لا تحرمه و من قطعك فَصِلْهُ و من ظلمك فاعدل فيه.

كَمَا قَالَ تَعَالَى: {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ96 وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ97 وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ}[المؤمنون]وَ قَالَ تَعَالَى:{وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ34 وَمَا يُلَقَّاهَا}أَىْ هَذِهِ الْوَصِيَّةَ {إِلا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ35 وَإِمَّا يَنزغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نزغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}[فُصِّلَتْ]

*فَهَذِهِ الْآيَاتُ الثَّلَاثُ فِي:-"الْأَعْرَافِ" وَ "الْمُؤْمِنُونَ" وَ "حم السَّجْدَةِ" لَا رَابِعَ لَهُنَّ فَإِنَّهُ تَعَالَى يُرْشِدُ فِيهِنَّ إِلَى مُعَامَلَةِ الْعَاصِي مِنَ الْإِنْسِ بِالْمَعْرُوفِ وَ الَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِنَّ ذَلِكَ يَكُفُّهُ عَمَّا هُوَ فِيهِ مِنَ التَّمَرُّدِ بِإِذْنِهِ تَعَالَى

وَ لِهَذَا قَالَ:(وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ) فصلت: ٣٤

ثُمَّ يُرْشِدُ تَعَالَى إِلَى الِاسْتِعَاذَةِ بِهِ مِنْ شَيْطَانِ الْجَانِّ فَإِنَّهُ لَا يَكُفُّهُ عَنْكَ الْإِحْسَانُ وَ إِنَّمَا يُرِيدُ هَلَاكَكَ وَ دَمَارَكَ بِالْكُلِّيَّةِ فإنه عدو مبين لك و لأبيك من قبلك ١٩٩

*و أما ما ينبغى أن يعامل به العبد شياطين الإنس و الجن فقال تعالى:–

(وَإِمَّا)أى:–فى أى وقت و فى أى حال

(يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ)أى: تحس منه بوسوسة و تثبيط عن الخير أو حث على الشر و إيعاز إليه.

*وَ إِمَّا يُغْضِبَنَّك مِنَ الشَّيْطَانِ غَضَبٌ يَصُدُّكَ عَنِ الْإِعْرَاضِ عَنِ الْجَاهِلِينَ وَ يَحْمِلُكَ عَلَى مُجَازَاتِهِمْ

(فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ)فَاسْتَجِرْ بِاللَّهِ مِنْ نَزْغِهِ-أى:التجئ و اعتصم باللّه و احتم بحماه

(إِنَّهُ)إنَّ اللَّهَ الَّذِى تَسْتَعِيذُ بِهِ مِنْ نَزْغِ الشَّيْطَانِ

(سَمِيعٌ)لِجَهْلِ الْجَاهِلِ عَلَيْكَ وَ الِاسْتِعَاذَةِ بِهِ مِنْ نَزْغِهِ وَ لِغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ كَلَامِ خَلْقِهِ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهُ شَىْءٌ

(عَلِيمٌ)بِمَا يُذْهِبُ عَنْكَ نَزْغَ الشَّيْطَانِ وَ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أُمُورِ خَلْقِهِ.

(إِنَّهُۥ سَمِيعٌ)لما تقول

(عَلِيمٌ)بنيتك و ضعفك و قوة التجائك له فسيحميك من فتنته و يقيك من وسوسته

كما قال (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ) إلى آخر السورة(٢٠٠)

(إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ)

و لما كان العبد لا بد أن يغفل و ينال منه الشيطان الذى لا يزال مرابطا ينتظر غرته و غفلته ذكر تعالى علامة المتقين من الغاوين و أن المتقى إذا أحس بذنب و مسه طائف من الشيطان

فـــ:-1-أذنب بفعل محرم 2-أو ترك واجب –

(تَذَكَّرُواْ)من أى باب أُتِىَ و من أى مدخل دخل الشيطان عليه

و تذكر ما أوجب اللّه عليه و ما عليه من لوازم الإيمان

(فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ)فأبصر و استغفر اللّه تعالى و استدرك ما فرط منه بالتوبة النصوح و الحسنات الكثيرة فرد شيطانه خاسئا حسيرا قد أفسد عليه كل ما أدركه منه.

*قُلْتُ:وَ قَدْ تَقَدَّمَ فِى أَوَّلِ الِاسْتِعَاذَةِ حَدِيثُ الرَّجُلَيْنِ اللَّذَيْنِ تَسَابَّا بِحَضْرَةِ النَّبِىِّ ﷺ:-

*البخارى6115-عَنْ سُلَيْمَانُ بْنُ صُرَدٍ قَالَ: اسْتَبَّ رَجُلَانِ عِنْدَ النَّبِىِّ ﷺوَ نَحْنُ عِنْدَهُ جُلُوسٌ وَ أَحَدُهُمَا يَسُبُّ صَاحِبَهُ مُغْضَبًا قَدِ احْمَرَّ وَجْهُهُ فَقَالَ النَّبِىُّ ﷺ:-

إِنِّى لَأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ لَوْ قَالَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ

فَقَالُوا لِلرَّجُلِ:-أَلَا تَسْمَعُ مَا يَقُولُ النَّبِىُّ ﷺ ؟ قَالَ: إِنِّى لَسْتُ بِمَجْنُونٍ

*وَ أَصْلُ "النَّزْغِ": الْفَسَادُ إِمَّا بِالْغَضَبِ أَوْ غَيْرِهِ.قَالَ اللَّهُ{وَقُلْ لِعِبَادِى يَقُولُوا الَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ}[الْإِسْرَاءِ:53] وَ"الْعِيَاذُ": الِالْتِجَاءُ وَ الِاسْتِنَادُ وَ الِاسْتِجَارَةُ مِنَ الشَّرِّ(٢٠١)

(وَإِخْوَٰنُهُمْ)أى وَ إِخْوَانُ الشَّيَاطِينِ مِنَ الْإِنْسِ كَقَوْلِهِ:-{إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ} [الْإِسْرَاءِ:27]

وَ هُمْ أَتْبَاعُهُمْ وَ الْمُسْتَمِعُونَ لَهُمُ الْقَابِلُونَ لِأَوَامِرِهِمْ

*و أما إخوان الشياطين و أولياؤهم(يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ)

فإنهم إذا وقعوا فى الذنوب لا يزالون يمدونهم فى الغى ذنبا بعد ذنب و لا يقصرون عن ذلك

فالشياطين لا تقصر عنهم بالإغواء لأنها طمعت فيهم حين رأتهم سلسي القياد لها

*تُسَاعِدُهُمُ الشَّيَاطِينُ عَلَى فِعْلِ الْمَعَاصِى وَ تُسَهِّلُهَا عَلَيْهِمْ و تحسنها لهم.

(ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ)عن فعل الشر.

*مَعْنَاهُ إِنَّ الشَّيَاطِينَ تَمُدُّ وَ الْإِنسَ لَا تُقْصِرُ فِي أَعْمَالِهِمْ بِذَلِكَ.

كَمَا قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابن عباس فِي قَوْلِهِ:-{وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ}

قَالَ: لَا الْإِنْسُ يُقْصِرُونَ عَمَّا يَعْمَلُونَ مِنَ السَّيِّئَاتِ وَ لَا الشَّيَاطِينُ تُمْسِكُ عَنْهُمْ.

*إِنَّ الشَّيَاطِينَ يَمُدُّونَ أَوْلِيَاءَهُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَ لَا تَسْأَمُ مِنْ إِمْدَادِهِمْ فِي الشَّرِّ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ طَبِيعَةٌ لَهُمْ وسَجِيَّة لَا تَفْتُرُ فِيهِ وَ لَا تَبْطُلُ عَنْهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى:{أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا} [مَرْيَم:83]

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَ غَيْرُهُ: تُزْعِجُهُمْ إِلَى الْمَعَاصِي إِزْعَاجًا(٢٠٢)

*و لا يزال هؤلاء المكذبون لك في تعنت و عناد و لو جاءتهم الآيات الدالة على الهدى و الرشاد فإذا جئتهم

بشيء من الآيات الدالة على صدقك لم ينقادوا(وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ)من آيات الاقتراح التى يعينونها

*كقوله(إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ)الشعراء: ٤

*يَقُولُونَ لِلرَّسُولِ ﷺ:-أَلَا تُجْهِدُ نَفْسَكَ فِي طَلَبِ الْآيَاتِ مِنَ اللَّهِ حَتَّى نَرَاهَا وَ نُؤْمِنَ بِهَا

(قَالُواْ لَوۡلَا)هلا(ٱجۡتَبَيۡتَهَا)اخترت الآية فصارت الآية الفلانية أو المعجزة الفلانية كأنك أنت المنزل للآيات

المدبر لجميع المخلوقات و لم يعلموا أنه ليس لك من الأمر شيء أو أن المعنى:-

لولا اخترعتها من نفسك.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ:-(قُلۡ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ)أَيْ: أَنَا لَا أَتَقَدَّمُ إِلَيْهِ تَعَالَى فِي شَيْءٍ وَ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا أَمَرَنِي بِهِ فَأَمْتَثِلُ مَا يُوحِيهِ إِلَيَّ فَإِنْ بَعَثَ آيَةً قَبِلْتُهَا وَ إِنَّ مَنَعَهَا لَمْ أَسْأَلْهُ ابْتِدَاءَ إِيَّاهَا إِلَّا أَنْ يَأْذَنَ لِي فِي ذَلِكَ فَإِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ.

ثُمَّ أَرْشَدَهُمْ إِلَى أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ هُوَ أَعْظَمُ الْمُعْجِزَاتِ وَ أَبْيَنُ الدَّلَالَاتِ وَ أَصْدَقُ الْحُجَجِ وَ الْبَيِّنَاتِ فَقَالَ:-

فأنا عبد متبع مدبَّر و اللّه تعالى هو الذى ينزل الآيات و يرسلها على حسب ما اقتضاه حمده و طلبتْه حكمته

البالغة فإن أردتم آية لا تضمحل على تعاقب الأوقات و حجة لا تبطل فى جميع الآنات

فـــــ(هَٰذَا)القرآن العظيم و الذكر الحكيم

(بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ)يستبصر به في جميع المطالب الإلهية و المقاصد الإنسانية و هو الدليل و المدلول

فمن تفكر فيه و تدبره علم أنه تنزيل من حكيم حميد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه

و به قامت الحجة على كل من بلغه و لكن أكثر الناس لا يؤمنون و إلا فمن آمن

(وَهُدٗى)له من الضلال(وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ)له من الشقاء

*فالمؤمن مهتد بالقرآن متبع له سعيد في دنياه و أخراه.

و أما من لم يؤمن به فإنه ضال شقى فى الدنيا و الآخرة(٢٠٣)

(وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ)

هذا الأمر عام فى كل من سمع كتاب اللّه يتلى فإنه مأمور بالاستماع له و الإنصات

و الفرق بين الاستماع و الإنصات :-

أن الإنصات:-فى الظاهر بترك التحدث أو الاشتغال بما يشغل عن استماعه.

و أما الاستماع له:-فهو أن يلقى سمعه و يحضر قلبه و يتدبر ما يستمع

فإن من لازم على هذين الأمرين حين يتلى كتاب اللّه فإنه ينال خيرا كثيرا و علما غزيرا و إيمانا مستمرا متجددا و هدى متزايدا و بصيرة في دينه

و لهذا رتب اللّه حصول الرحمة عليهما فدل ذلك على أن من تُلِيَ عليه الكتاب فلم يستمع له و ينصت أنه محروم الحظ من الرحمة قد فاته خير كثير.

و من أوكد ما يؤمر به مستمع القرآن أن يستمع له و ينصت في الصلاة الجهرية إذا قرأ إمامه فإنه مأمور بالإنصات حتى إن أكثر العلماء يقولون:-إن اشتغاله بالإنصات أولى من قراءته الفاتحة و غيرها.

*لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّ الْقُرْآنَ بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَ هُدًى وَ رَحْمَةٌ أَمَرَ تَعَالَى بِالْإِنْصَاتِ عِنْدَ تِلَاوَتِهِ إِعْظَامًا لَهُ وَ احْتِرَامًا لَا كَمَا كَانَ يَعْتَمِدُهُ كُفَّارُ قُرَيْشٍ الْمُشْرِكُونَ فِي قَوْلِهِمْ:{لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ}[فُصِّلَتْ:26]
وَ لَكِنْ يَتَأَكَّدُ ذَلِكَ فِي الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ إِذَا جَهَرَ الْإِمَامُ بِالْقِرَاءَةِ

*قُلْتُ: هَذَا مَذْهَبُ طَائِفَةٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ:-أَنَّ الْمَأْمُومَ لَا يَجِبُ عَلَيْهِ فِي الصَّلَاةِ الْجَهْرِيَّةِ قِرَاءَةٌ فِيمَا جَهَرَ فِيهِ الْإِمَامُ لَا الْفَاتِحَةُ وَ لَا غَيْرُهَا.

*عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ:-قَوْلُهُ:{وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا} يَعْنِي:-فِي الصَّلَاةِ الْمَفْرُوضَةِ.

*عَنْ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ كَرِيزَ قَالَ:-رَأَيْتُ عُبَيْدَ بْنَ عُمَيْرٍ وَ عَطَاءَ بْنَ أَبِي رَبَاحٍ يَتَحَدَّثَانِ وَ الْقَاصُّ يَقُصُّ فَقُلْتُ: أَلَا تَسْتَمِعَانِ إِلَى الذِّكْرِ وَ تَسْتَوْجِبَانِ الْمَوْعُودَ؟ قَالَ: فَنَظَرَا إِلَيَّ ثُمَّ أَقْبَلَا عَلَى حَدِيثِهِمَا. قَالَ:-فَأَعَدْتُ فَنَظَرَا إِلَيَّ وَ أَقْبَلَا عَلَى حَدِيثِهِمَا.

قَالَ: فَأَعَدْتُ الثَّالِثَةَ قَالَ:-فَنَظَرَا إِلَيَّ فَقَالَا إِنَّمَا ذَلِكَ فِي الصَّلَاةِ:{وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا}۝٢٠٤

(وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ)

الذكر للّه تعالى يكون بالقلب و يكون باللسان و يكون بهما و هو أكمل أنواع الذكر و أحواله

فأمر اللّه عبده و رسوله محمدا أصلا و غيره تبعا بذكر ربه فى نفسه أى: مخلصا خاليا.

(تَضَرُّعٗا)متضرعا بلسانك مكررا لأنواع الذكر

(وَخِيفَةٗ)فى قلبك بأن تكون خائفا من اللّه وَجِلَ القلب منه خوفا أن يكون عملك غير مقبول

و علامة الخوف أن يسعى و يجتهد فى تكميل العمل و إصلاحه و النصح به.

(وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ)كن متوسطا لا تجهر بصلاتك و لا تخافت بها و ابتغ بين ذلك سبيلا.

*وَ هَكَذَا يُسْتَحَبُّ أَنْ يَكُونَ الذِّكْرُ لَا يَكُونُ نِدَاءً وَ لَا جَهْرًا بَلِيغً

*مسلم(2704) عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ:-كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺفِي سَفَرٍ فَجَعَلَ النَّاسُ يَجْهَرُونَ بِالتَّكْبِيرِ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:-

«أَيُّهَا النَّاسُ ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ(معناه ارفقوا بأنفسكم واخفضوا أصواتكم فإن رفع الصوت إنما يفعله الإنسان لبعد من يخاطبه ليسمعه وأنتم تدعون الله تعالى وليس هو بأصم ولا غائب بل هو سميع قريب)إِنَّكُمْ لَيْسَ تَدْعُونَ أَصَمَّ وَ لَا غَائِبًا إِنَّكُمْ تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا وَ هُوَ مَعَكُمْ»
قَالَ وَ أَنَا خَلْفَهُ وَ أَنَا أَقُولُ:-لَا حَوْلَ وَ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ فَقَالَ يَا عَبْدَ اللهِ بْنَ قَيْسٍ:-
أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى كَنْزٍ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ فَقُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ:"قُلْ:-لَا حَوْلَ وَ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ"
*وَ قَدْ يَكُونُ الْمُرَادُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ كَمَا فِي قَوْلِهِ{وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً} [الإسراء:110]
فَإِنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا إِذَا سَمِعُوا الْقُرْآنَ سَبُّوهُ وَ سَبُّوا مَنْ أَنْزَلَهُ وَ سَبُّوا مَنْ جَاءَ بِهِ
فَأَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَلَّا يَجْهَرَ بِهِ لِئَلَّا يَنَالَ مِنْهُ الْمُشْرِكُونَ وَ لَا يُخَافِتَ بِهِ عَنْ أَصْحَابِهِ فَلَا يُسْمِعُهُمْ وَ لْيَتَّخِذْ سَبِيلًا بَيْنَ الْجَهْرِ وَ الْإِسْرَارِ. وَ كَذَا قَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ{وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ}
أَمْرُ تَعَالَى بِذِكْرِهِ أَوَّلَ النَّهَارِ وَ آخِرَهُ كَمَا أَمَرَ بِعِبَادَتِهِ فِي هَذَيْنِ الْوَقْتَيْنِ فِي قَوْلِهِ:{وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ}[ق:39] وَ قَدْ كَانَ هَذَا قَبْلَ أَنْ تُفْرَضَ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ وَ هَذِهِ الْآيَةُ مَكِّيَّةٌ.

(بِٱلۡغُدُوِّ)أول النهار(وَٱلۡأٓصَالِ)جمع أصيل

آخره و هذان الوقتان لذكر الله فيهما مزية و فضيلة على غيرهما.

(وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ)الذين نسوا اللّه فأنساهم أنفسهم فإنهم حرموا خير الدنيا و الآخرة

و أعرضوا عمن كل السعادة و الفوز فى ذكره و عبوديته و أقبلوا على من كل الشقاوة و الخيبة في الاشتغال به

و هذه من الآداب التى ينبغى للعبد أن يراعيها حق رعايتها و هى الإكثار من ذكر اللّه آناء الليل و النهار

خصوصا طَرَفَيِ النهار مخلصا خاشعا متضرعا متذللا ساكنا و تواطئا عليه قلبه و لسانه بـــــ:–

1–أدب و وقار 2–و إقبال على الدعاء و الذكر 3–و إحضار له بقلبه و عدم غفلة

فإن اللّه لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه.

*ثم ذكر تعالى أن له عبادا مستديمين لعبادته ملازمين لخدمته و هم الملائكة فلتعلموا أن اللّه لا يريد أن يتكثر بعبادتكم من قلة و لا ليتعزز بها من ذلة ﴿٢٠٥﴾

و إنما يريد نفع أنفسكم و أن تربحوا عليه أضعاف أضعاف ما عملتم فقال:–

(إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ)من الملائكة المقربين و حملة العرش و الكروبيين.

(لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ)بل يذعنون لها و ينقادون لأوامر ربهم

(وَيُسَبِّحُونَهُۥ)الليل و النهار لا يفترون.(وَلَهُۥ)وحده لا شريك له

(يَسۡجُدُونَ)فليقتد العباد بهؤلاء الملائكة الكرام و ليداوموا على عبادة الملك العلام.

*مسلم (430) عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رضي الله عنه قَالَ:-خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ:-
«مَا لِي أَرَاكُمْ رَافِعِي أَيْدِيكُمْ كَأَنَّهَا أَذْنَابُ خَيْلٍ شُمْسٍ؟
(جمع شموس مثل رسول و رسل و هى التى لا تستقر بل تضرب و تتحرك بأذنابها و أرجلها)اسْكُنُوا فِي الصَّلَاةِ»
قَالَ:-ثُمَّ خَرَجَ عَلَيْنَا فَرَآنَا حَلَقًا(جمع الحلقة بسكون اللام على غير قياس و قال النووى بكسر الحاء وفتحها لغتان جمع حلقة بإسكان اللام)فَقَالَ:-

«مَالِي أَرَاكُمْ عِزِينَ(أي جماعات فى تفرقة جمع عزة وأصلها عزوة فحذفت الواو وجمعت جمع السلامة على غير قياس)»قَالَ: ثُمَّ خَرَجَ عَلَيْنَا فَقَالَ:- «أَلَا تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا؟»فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ وَ كَيْفَ تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا؟ قَالَ: «يُتِمُّونَ الصُّفُوفَ الْأُوَلَ وَ يَتَرَاصُّونَ فِي الصَّفِّ»( )

*وَ هَذِهِ أَوَّلُ سَجْدَةٍ فِي الْقُرْآنِ مِمَّا يُشْرَعُ لِتَالِيهَا وَ مُسْتَمِعِهَا السُّجُودُ بِالْإِجْمَاعِ﴿٢٠٦﴾

(شمس)]

الأعراف ١٩٦

خامس الخلفاء الراشدين

وهذا عمر بن عبد العزيز رحمه الله يتعايش مع قوله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [٦]، فقد قيل له وهو على فراش الموت: هؤلاء بنوك - وكانوا اثني عشر - ألا توصي لهم بشيء فإنهم فقراء؟! فقال: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ ، والله لا أعطيهم حقَّ أحدٍ، وهم بين رجلين: إما صالح؛ فالله يتولى الصالحين، وإما غير صالح؛ فما كنتُ لأُعِينَهُ على فِسْقِهِ، ولا أبالي في أيِّ وادٍ هلك، ولا أدعُ له ما يستعين به على معصية الله فأكونُ شريكَه فيما يعمل بعد الموت، ثم استدعى أولادَه فودَّعهم وعزَّاهم وأوصاهم بهذا الكلام ثم قال: انصرفوا عصمَكم الله وأحسنَ الخلافة عليكم.

قالوا: فلقد رأينا بعض أولاد عمر بن عبد العزيز يَحملُ على ثمانينَ فرسًا في سبيل الله، وكان بعض أولاد سليمانَ بن عبد الملكِ مع كثرةِ ما تركَ لهم من الأموال؛ يتعاطى ويسألُ من أولاد عمر بن عبد العزيز، لأن عمرَ وَكَلَ ولدَهُ إلى الله عز وجل، وسليمانُ وغيرُه إنما يَكِلُونَ أولادهم إلى ما يَدَعُونَ لهم من الإرث؛ فَيَضِيعُونَ وتذهبُ أموالُهم في شهوات أولادهم!. لقد عمل عمر بن عبد العزيز في حقّ أبنائه بمضمون الآية الكريمة؛ فعصمَهُم الله سبحانه، وضَمِنَ لهم خير الدنيا والآخرة!

كان عمر رضي الله عنه وقَّافًا عند كتاب الله

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قَدِمَ عُيَيْنَةُ بنُ حِصْن بن حذيفة بن بدر فنزلَ على ابن أخيهِ الحُرِّ بن قَيْس بن حِصْن، وكان من النفر الذين يُدْنِيهِمْ عُمَرُ، وكان القُرَّاءُ أصحابَ مجلسِ عمر ومشاورتِه؛ كُهُولاً كانوا أو شُبَّانًا، فقالَ عُيَيْنَةُ لابنِ أخيه: يا ابن أخي؛ هل لكَ وجهٌ عندَ هذا الأميرِ فتستأذنَ لي عليه؟ قال: سأستأذن لك عليه، قال ابن عباس: فاستأذنَ لعُيينةَ؛ فلما دخل قال: يا ابن الخطاب؛ والله ما تعطينا الجَزْل، ولا تحكمُ بيننا بالعَدْل! فغضبَ عمرُ حتى هَمَّ بأن يَقَعَ بِهِ، فقال الحُرُّ: يا أميرَ المؤمنينَ؛ إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[٢]، وإن هذا من الجاهلين، فوالله ما جاوزها عُمَرُ حين تلاها عليه، وكان وَقَّافًا عند كتابِ الله[٣].

الأعراف ١٩٩

8-سورة الانفال -مكية-بسم الله الرحمن الرحيم

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾

الترمذى 3079 عَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ:-لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ جِئْتُ بِسَيْفٍ فَقُلْتُ: -
يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ قَدْ شَفَى صَدْرِى مِنَ الْمُشْرِكِينَ-أَوْ نَحْوَ هَذَا -هَبْ لِى هَذَا السَّيْفَ فَقَالَ:-
«هَذَا لَيْسَ لِى وَ لَا لَكَ»فَقُلْتُ: عَسَى أَنْ يُعْطَى هَذَا مَنْ لَا يُبْلِي بَلَائِى فَجَاءَنِى الرَّسُولُ فَقَالَ:-
«إِنَّكَ سَأَلْتَنِى وَ لِيسَ لى وَ إِنَّهُ قَدْ صَارَ لى و هُوَ لَكَ» قَالَ:-فَنَزَلَتْ:{يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ} [الأنفال: 1]

الأنفال:–الغنائم التى ينفلها اللّه لهذه الأمة من أموال الكفار و كانت هذه الآيات فى هذه السورة

قد نزلت في قصة (بدر) أول غنيمة كبيرة غنمها المسلمون من المشركين .

فحصل بين بعض المسلمين فيها نزاع فسألوا رسول اللّه ﷺ عنها فأنزل اللّه:–

القوانين الربانية 1-40

حكم الغنائم و صفات المؤمنين 1-4

(يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ) كيف تقسم و على من تقسم؟

(قُلِ)لهم:–(ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ)يضعانها حيث شاءا فلا اعتراض لكم على حكم اللّه و رسوله.

بل عليكم إذا حكم اللّه و رسوله أن ترضوا بحكمهما و تسلموا الأمر لهما.و ذلك داخل فى قوله:–

(فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ)بامتثال أوامره و اجتناب نواهيه

(وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ)أى:أصلحوا ما بينكم من التشاحن و التقاطع و التدابر بـــ:–

التوادد و التحاب و التواصل.

فبذلك تجتمع كلمتكم و يزول ما يحصل–بسبب التقاطع–من التخاصم و التشاجر و التنازع.

و يدخل فى إصلاح ذات البين:–

1–تحسين الخلق لهم 2–و العفو عن المسيئين منهم

فإنه بذلك يزول كثير مما يكون في القلوب من البغضاء و التدابر.و الأمر الجامع لذلك كله قوله:-

(وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ)فإن الإيمان يدعو إلى طاعة اللّه و رسوله كما أن من لم يطع اللّه

و رسوله فليس بمؤمن.و من نقصت طاعته للّه و رسوله فذلك لنقص إيمانه 1

﴿وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡ﴾ الانفال:١

كلما تذكرت هذه الآية: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡ﴾(١)

أحْرِصُ ألا يكون بيني وبين أحدٍ خلافٌ، وأحاول إن كان هناك خلاف أن أمحوه تطبيقًا لهذه الآية.

و لما كان الإيمان قسمين:-

1-إيمانا كاملا يترتب عليه المدح و الثناء و الفوز التام 2-و إيمانا دون ذلك ذكر الإيمان الكامل فقال:-

(إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ)الألف و اللام للاستغراق لشرائع الإيمان.

(ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ)خافت و رهبت(قُلُوبُهُمۡ)

فأوجبت لهم خشية اللّه تعالى الانكفاف عن المحارم فإن خوف اللّه تعالى أكبر علاماته أن يحجز صاحبه عن الذنوب.

(ليس المراد ذكر اللسان فقط بل المراد تذكر الله و مراقبته فيوجل العبد و يجتنب المعصية أو يتوب عنها.

قال السدى:-هو الرجل يهم بالمعصية فيذكر الله فينزع عنها و منه قوله:-

(وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ[آل عمران: 135])

(وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا)

*وَ قَدِ اسْتَدَلَّ الْبُخَارِيُّ وَ غَيْرُهُ مِنَ الْأَئِمَّةِ بِهَذِهِ الْآيَةِ وَ أَشْبَاهِهَا عَلَى:-
زِيَادَةِ الْإِيمَانِ وَ تَفَاضُلِهِ فِي الْقُلُوبِ كَمَا هُوَ مَذْهَبُ جُمْهُورِ الْأُمَّةِ

*و وجه ذلك أنهم يلقون له السمع و يحضرون قلوبهم لتدبره فعند ذلك يزيد إيمانهم لأن التدبر من أعمال القلوب و لأنه لا بد أن يبين لهم معنى كانوا يجهلونه أو يتذكرون ما كانوا نسوه

أو يحدث فى قلوبهم رغبة فى الخير و اشتياقا إلى كرامة ربهم أو وجلا من العقوبات و ازدجارا عن المعاصى

و كل هذا مما يزداد به الإيمان.

(وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ)وحده لا شريك له

(يَتَوَكَّلُونَ)يعتمدون فى قلوبهم على ربهم فى جلب مصالحهم و دفع مضارهم الدينية و الدنيوية

و يثقون بأن اللّه تعالى سيفعل ذلك.و التوكل هو الحامل للأعمال كلها فلا توجد و لا تكمل إلا به 2

(ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ)

من فرائض و نوافل بأعمالها الظاهرة و الباطنة كـ:–حضور القلب فيها الذى هو روح الصلاة و لبها.

(وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ)النفقات الواجبة كـ:–

1–الزكوات 2–و الكفارات 3–و النفقة على الزوجات و الأقارب و ما ملكت أيمانهم.

و المستحبة كـ:–الصدقة فى جميع طرق الخير 3

(أُوْلَٰٓئِكَ)الذين اتصفوا بتلك الصفات

(هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا)لأنهم جمعوا بين الإسلام و الإيمان بين الأعمال الباطنة و الأعمال الظاهرة

بين العلم و العمل بين أداء حقوق اللّه و حقوق عباده.

و قدم تعالى أعمال القلوب لأنها أصل لأعمال الجوارح و أفضل منها و فيها دليل على أن:–

1–الإيمان يزيد و ينقص فيزيد بفعل الطاعة و ينقص بضدها.

2–و أنه ينبغى للعبد أن يتعاهد إيمانه و ينميه.

3–و أن أولى ما يحصل به ذلك تدبر كتاب اللّه تعالى و التأمل لمعانيه.ثم ذكر ثواب المؤمنين حقا فقال:–

(لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ)عالية بحسب علو أعمالهم.

(وَمَغْفِرَةٌ)لذنوبهم(وَرِزْقٌ كَرِيمٌ)

و هو ما أعد اللّه لهم في دار كرامته مما لا عين رأت و لا أذن سمعت و لا خطر على قلب بشر.

و دل هذا على أن من يصل إلى درجتهم فى الإيمان– و إن دخل الجنة–فلن ينال ما نالوا من كرامة اللّه التامة.

*البخارى 3256 عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺقَالَ:-
«إِنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ يَتَرَاءَوْنَ(يرون وينظرون ويتكلفون لذلك)أَهْلَ الغُرَفِ(أصحاب المنازل العالية والغرف جمع غرفة و هى العلية)مِنْ فَوْقِهِمْ كَمَا يَتَرَاءَوْنَ الكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الغَابِرَ(الذاهب أو الباقى بعد انتشار ضوء الفجر)فِي الأُفُقِ(أطراف السماء)مِنَ المَشْرِقِ أَوِ المَغْرِبِ لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ»(لبعد منازل أهل الغرف وعلو درجاتهم عن باقي أهل الجنة)قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ تِلْكَ مَنَازِلُ الأَنْبِيَاءِ لاَ يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ قَالَ:-
«بَلَى وَ الَّذِى نَفْسى بِيَدِهِ رِجَالٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ صَدَّقُوا المُرْسَلِينَ»
*وَ مَعْنَى هَذَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ:-كَمَا أَنَّكُمْ :-لَمَّا اخْتَلَفْتُمْ فِي الْمَغَانِمِ وَ تَشَاحَحْتُمْ فِيهَا فَانْتَزَعَهَا اللَّهُ مِنْكُمْ وَ جَعَلَهَا إِلَى قَسْمِهِ وَ قَسْمِ رَسُولِهِ ﷺ فَقَسَّمَهَا عَلَى العَدْلِ وَ التَّسْوِيَةِ فَكَانَ هَذَا هُوَ الْمَصْلَحَةَ التَّامَّةَ لَكُمْ وَ كَذَلِكَ لَمَّا كَرِهْتُمُ الْخُرُوجَ إِلَى الْأَعْدَاءِ مِنْ قتال ذات الشوكة-و هم النَّفِيرُ الَّذِينَ خَرَجُوا لِنَصْرِ دِينِهِمْ وَ إِحْرَازِ عِيرِهِمْ-فَكَانَ عَاقِبَةُ كَرَاهَتِكُمْ لِلْقِتَالِ-بِأَنْ قدَّره لَكُمْ و جَمَعَ بِهِ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَ عَدُوِّكُمْ عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ-رَشَدًا وَ هُدًىو نَصْرًا وَ فَتْحًا كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الْبَقَرَة: 216]

*قدم تعالى–أمام هذه الغزوة الكبرى المباركة–الصفات التى على المؤمنين أن يقوموا بها لأن من قام بها استقامت أحواله و صلحت أعماله التى من أكبرها الجهاد في سبيله.

*فكما أن إيمانهم هو الإيمان الحقيقى و جزاءهم هو الحق الذى وعدهم اللّه به 4

(كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ)كذلك أخرج اللّه رسولهﷺمن بيته إلى لقاء المشركين فى (بدر)

(بِٱلۡحَقِّ)الذى يحبه اللّه تعالى و قد قدره و قضاه.

قصة غزوة بدر 5-19

(وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ)و ذلك بالوحى الذى أتاك به جبريل مع كراهة فريق من المؤمنين للخروج

*و إن كان المؤمنون لم يخطر ببالهم في ذلك الخروج أنه يكون بينهم و بين عدوهم قتال.فحين تبين لهم أن ذلك واقع ٥

(يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ)أن ذلك واقع

جعل فريق من المؤمنين يجادلون النبىﷺفى ذلك و يكرهون لقاء عدوهم

*كَرَاهِيَةً لِلِقَاءِ الْمُشْرِكِينَ وَ إِنْكَارًا لِمَسِيرِ قُرَيْشٍ حِينَ ذُكِرُوا لَهُمْ.

(كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ)إليه عِيانًا

*و الحال أن هذا لا ينبغى منهم خصوصا بعد ما تبين لهم أن خروجهم بالحق و مما أمر اللّه به و رضيه.

فبهذه الحال ليس للجدال محل فيها لأن الجدال محله و فائدته عند اشتباه الحق و التباس الأمر.

فأما إذا وضح و بان فليس إلا الانقياد و الإذعان.

هذا و كثير من المؤمنين لم يجر منهم من هذه المجادلة شيء و لا كرهوا لقاء عدوهم و كذلك الذين عاتبهم اللّه انقادوا للجهاد أشد الانقياد و ثبتهم اللّه و قيض لهم من الأسباب ما تطمئن به قلوبهم كما سيأتى ذكر بعضها.

و كان أصل خروجهم يتعرضون لعير خرجت مع أبي سفيان بن حرب لقريش إلى الشام قافلة كبيرة فلما سمعوا برجوعها من الشام ندب النبى ﷺالناس فخرج معه ثلاثمائة و بضعة عشر رجلا معهم سبعون بعيرا يعتقبون عليها و حملون عليها متاعهم.فسمعت بخبرهم قريش فخرجوا لمنع عيرهم فى عَدَدٍ كثير و عُدَّةٍ وافرة من السلاح و الخيل و الرجال يبلغ عددهم قريبا من الألف٦

(وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ)فوعد اللّه المؤمنين إحدى الطائفتين إما أن يظفروا بالعير أو بالنفير

(وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ)فأحبوا العير لقلة ذات يد المسلمين و لأنها غير ذات شوكة

و لكن اللّه تعالى أحب لهم و أراد أمرا أعلى مما أحبوا أراد أن يظفروا بالنفير الذي خرج فيه كبراء المشركين و صناديدهم

(وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ)فينصر أهله هُوَ يُرِيدُ أَنْ يَجْمَعَ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَ الطَّائِفَةِ الَّتِى لَهَا الشَّوْكَةُ وَ الْقِتَالُ لِيُظَفِّرَكم بِهِمْ وَ يُظْهِرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَ يُظْهِرَ دِينَهُ وَ يَرْفَعَ كَلِمَةَ الْإِسْلَامِ وَ يَجْعَلَهُ غَالِبًا عَلَى الْأَدْيَانِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِعَوَاقِبِ الْأُمُورِ وَ هُوَ الَّذِى دبركم

(وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ)يستأصل أهل الباطل و يُرِىَ عباده من نصره للحق أمرا لم يكن يخطر ببالهم﴿٧﴾

(لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ)بما يظهر من الشواهد و البراهين على صحته و صدقه

(وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ)بما يقيم من الأدلة و الشواهد على بطلانه

(وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ)فلا يبالى اللّه بهم.

*عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ-كُلٌّ قَدْ حَدَّثَنِي بَعْضَ هَذَا الْحَدِيثِ فَاجْتَمَعَ حَدِيثُهُمْ فِيمَا سُقْتُ مِنْ حَدِيثِ بَدْرٍ -
قَالُوا:-لَمَّا سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺبِأَبِي سُفْيَانَ مُقْبِلًا مِنَ الشَّام نَدب الْمُسْلِمِينَ إِلَيْهِمْ
وَ قَالَ:-"هَذِهِ عِيرُ قُرَيْشٍ فِيهَا أَمْوَالُهُمْ فَاخْرُجُوا إِلَيْهَا لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُنْفلكُموها" فَانْتَدَبَ الناسُ فَخفَّ بَعْضُهُمْ
وَ ثَقُلَ بَعْضُهُمْ وَ ذَلِكَ أَنَّهُمْ لَمْ يَظُنُّوا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺيَلْقَى حَرْبًا
وَ كَانَ أَبُو سُفْيَانَ قَدِ اسْتَنْفَرَ حِينَ دَنَا مِنَ الْحِجَازِ يَتَجَسَّسُ الْأَخْبَارَ وَ يَسْأَلُ مَنْ لَقِىَ مِنِ الرُّكْبَانِ تَخَوُّفًا عَلَى أَمْرِ النَّاسِ حَتَّى أَصَابَ خَبَرًا مِنْ بَعْضِ الرُّكْبَانِ:-
أَنَّ مُحَمَّدًا قَدِ اسْتَنْفَرَ أَصْحَابَهُ لَكَ وَ لِعِيرِكَ فَحَذِرَ عِنْدَ ذَلِكَ فَاسْتَأْجَرَ ضَمْضَم بْنَ عَمْرٍو الْغِفَارِيَّ فَبَعَثَهُ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ وَ أَمَرَهُ أَنْ يَأْتِيَ قُرَيْشًا فَيَسْتَنْفِرهُمْ إِلَى أَمْوَالِهِمْ وَ يُخْبِرَهُمْ أَنَّ مُحَمَّدًا قَدْ عَرَضَ لَهَا فِي أَصْحَابِهِ
فَخَرَجَ ضَمْضَمُ بْنُ عَمْرٍو سَرِيعًا إِلَى مَكَّةَ وَ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺفِي أَصْحَابِهِ حَتَّى بَلَغَ وَادِيًا يُقَالُ لَهُ "ذَفِرَان"
فَخَرَجَ مِنْهُ حَتَّى إِذَا كَانَ بِبَعْضِهِ نَزَلَ وَ أَتَاهُ الْخَبَرُ عَنْ قُريش بِمَسِيرِهِمْ لِيَمْنَعُوا عِيرَهُمْ فَاسْتَشَارَ
النَّبِيُّ ﷺالنَّاسَ وَ أَخْبَرَهُمْ عَنْ قُرَيْشٍ فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ ﷺفَقَالَ فَأَحْسَنَ ثُمَّ قَامَ عُمَرُ ﷺفَقَالَ فَأَحْسَنَ
ثُمَّ قَامَ الْمِقْدَادُ بْنُ عَمْرٍو فَقَالَ:-
يَا رَسُولَ اللَّهِ امْضِ لِمَا أَمَرَكَ اللَّهُ بِهِ فَنَحْنُ مَعَكَ وَ اللَّهِ لَا نَقُولُ لَكَ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى:
{فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ} [المَائِدَة: 24]وَ لَكِنِ اذْهَبْ أَنْتَ وَ رَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا مَعَكُمَا مُقَاتِلُونَ
فَوَ الَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَوْ سِرْتَ بِنَا إِلَى "بَرْك الغماد"-يَعْنِى مَدِينَةَ الْحَبَشَةِ-لَجَالَدْنَا مَعَكَ مَنْ دُونِهِ حَتَّى تَبْلُغَهُ
فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺخَيْرًا وَ دَعَا لَهُ بِخَيْرٍ ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:-
"أَشِيرُوا عَلَيَّ أَيُّهَا النَّاسُ"-وَ إِنَّمَا يُرِيدُ الْأَنْصَارَ-وَ ذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا عدد النَّاسِ وَ ذَلِكَ أَنَّهُمْ حِينَ بَايَعُوهُ بِالْعَقَبَةِ
قَالُوا:-يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا بُرَآءُ مِنْ ذِمَامك حَتَّى تَصِلَ إِلَى دَارِنَا فَإِذَا وَصَلْتَ إِلَيْنَا فَأَنْتَ فِي ذِمَمِنا نَمْنَعُكَ مِمَّا نَمْنَعُ
مِنْهُ أَبْنَاءَنَا وَ نِسَاءَنَا فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺيَتَخَوَّفُ أَلَّا تَكُونَ الْأَنْصَارُ تَرَى عَلَيْهَا نُصْرَتَهُ إِلَّا مِمَّنْ دَهَمَهُ بِالْمَدِينَةِ
مِنْ عَدُوِّهِ وَ أَنْ لَيْسَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَسِيرَ بِهِمْ إِلَى عَدُوٍّ مِنْ بِلَادِهِم فَلَمَّا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺذَلِكَ قَالَ لَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ:-وَ اللَّهِ لَكَأَنَّكَ تُرِيدُنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟
قَالَ:"أَجَلْ" قَالَ: فَقَالَ: فَقَدْ آمَنَّا بِكَ وَ صَدَّقْنَاكَ وَ شَهِدْنَا أَنَّ مَا جِئْتَ بِهِ هُوَ الْحَقُّ وَ أَعْطَيْنَاكَ عَلَى ذَلِكَ عُهُودَنَا وَ مَوَاثِيقَنَا عَلَى السَّمْعِ وَ الطَّاعَةِ فَامْضِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَا أَرَدْتَ.
فَوَالَّذِى بَعَثَكَ بِالْحَقِّ إِنِ اسْتَعْرَضْتَ بِنَا هَذَا الْبَحْرَ فَخُضْتَهُ لَخُضْنَاهُ مَعَكَ مَا يَتَخَلَّفُ مِنَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ وَ مَا
نَكْرَهُ أَنْ تَلْقَى بِنَا عَدُوَّنَا غَدًا إِنَّا لصبُر عِنْدَ الْحَرْبِ صُدق عِنْدَ اللِّقَاءِ وَ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُرِيَكَ مِنَّا مَا تَقَرّ بِهِ عَيْنُكَ
فسِرْ بِنَا عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ. فسُرّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺبِقَوْلِ سَعْدٍ و نَشَّطه ذَلِكَ ثُمَّ قَالَ:-"سِيرُوا عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ
وَ أَبْشِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ وَعَدَنِي إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ وَ اللَّهِ لَكَأَنِّي الْآنَ أَنْظُرُ إِلَى مَصَارِعِ الْقَوْمِ"﴿٨﴾

إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ ٩ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ وَلِتَطۡمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمۡۚ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ١٠ إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةٗ مِّنۡهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ وَلِيَرۡبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمۡ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ ١١ إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ ١٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ١٣ ذَٰلِكُمۡ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٤ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ١٥ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٦

*مسلم (1763) عن عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبَّاسٍ ﭬ قَالَ: -حَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ قَالَ:-لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ (اعلم أن بدرا هو موضع الغزوة العظمى المشهورة وهو ماء معروف وقرية عامرة على نحو أربع مراحل من المدينة بينها وبين مكة قال ابن قتيبة بدر بئر كانت لرجل يسمى بدرا فسميت باسمه وكانت غزوة بدر يوم الجمعة لسبع عشرة خلت من رمضان في السنة الثانية للهجرة)نَظَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺإِلَى الْمُشْرِكِينَ وَ هُمْ أَلْفٌ وَ أَصْحَابُهُ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَ تِسْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا فَاسْتَقْبَلَ نَبِيُّ اللهِ ﷺالْقِبْلَةَ ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ فَجَعَلَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ(معناه يصيح وستغيث بالله في الدعاء):-«اللهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي اللهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي اللهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ(ضبطوا تهلك بفتح الهاء وضمها فعلى الأول ترفع العصابة لأنها فاعل وعلى الثاني تنصب وتكون مفعوله)هَذِهِ الْعِصَابَةَ(الجماعة) مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ»

فَمَا زَالَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ مَادًّا يَدَيْهِ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ ثُمَّ الْتَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ وَ قَالَ:-يَا نَبِيَّ اللهِ كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ(ضبطوها بالرفع والنصب وهو الأشهر قال القاضي من رفعه جعله فاعلا بكفاك ومن نصبه فعلى المفعول بما في كفاك وكذاك من معنى الفعل)رَبَّكَ فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:-

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾[الأنفال: 9]

فَأَمَدَّهُ اللهُ بِالْمَلَائِكَةِ قَالَ أَبُو زُمَيْلٍ: فَحَدَّثَنِي ابْنُ عَبَّاسٍ قَالَ:-

بَيْنَمَا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ يَشْتَدُّ فِي أَثَرِ رَجُلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَمَامَهُ إِذْ سَمِعَ ضَرْبَةً بِالسَّوْطِ فَوْقَهُ وَ صَوْتَ الْفَارِسِ يَقُولُ:-أَقْدِمْ حَيْزُومُ(ضبطوه بوجهين أصحهما وأشهرهما لم يذكر ابن دريد وكثيرون أو الأكثرون غيره أنه بهمزة قطع مفتوحة وبكسر الدال من الإقدام قالوا وهي كلمة زجر للفرس معلومة في كلامهم والثاني بضم الدال وبهمزة وصل مضمومة من التقدم وحيزوم اسم فرس الملك وهو منادى بحذف حرف النداء أي يا حيزوم)

فَنَظَرَ إِلَى الْمُشْرِكِ أَمَامَهُ فَخَرَّ مُسْتَلْقِيًا فَنَظَرَ إِلَيْهِ فَإِذَا هُوَ قَدْ خُطِمَ(الخطم الأثر على الأنف)أَنْفُهُ وَ شُقَّ وَجْهُهُ كَضَرْبَةِ السَّوْطِ فَاخْضَرَّ ذَلِكَ أَجْمَعُ فَجَاءَ الْأَنْصَارِيُّ فَحَدَّثَ بِذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺفَقَالَ:-

«صَدَقْتَ ذَلِكَ مِنْ مَدَدِ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ»فَقَتَلُوا يَوْمَئِذٍ سَبْعِينَ وَ أَسَرُوا سَبْعِينَ قَالَ أَبُو زُمَيْلٍ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ:

فَلَمَّا أَسَرُوا الْأُسَارَى قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺلِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ:-«مَا تَرَوْنَ فِي هَؤُلَاءِ الْأُسَارَى؟»

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا نَبِيَّ اللهِ هُمْ بَنُو الْعَمِّ وَ الْعَشِيرَةِ أَرَى أَنْ تَأْخُذَ مِنْهُمْ فِدْيَةً فَتَكُونُ لَنَا قُوَّةً عَلَى الْكُفَّارِ

فَعَسَى اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُمْ لِلْإِسْلَامِ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:-
«مَا تَرَى يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟»قُلْتُ: لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ مَا أَرَى الَّذِى رَأَى أَبُو بَكْرٍ
وَ لَكِنِّي أَرَى أَنْ تُمَكِّنَّا فَنَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ فَتُمَكِّنَ عَلِيًّا مِنْ عَقِيلٍ فَيَضْرِبَ عُنُقَهُ
وَ تُمَكِّنِّى مِنْ فُلَانٍ نَسِيبًا لِعُمَرَ فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ أَئِمَّةُ الْكُفْرِ وَ صَنَادِيدُهَا(يعنى أشرافها الواحد صنديد والضمير فى صناديدها يعود على أئمة الكفر أو مكة)فَهَوِيَ(أى أحب ذلك واستحسنه يقال هوى الشىء يهوى هوى و الهوى المحبة)رَسُولُ اللهِ ﷺمَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ
وَ لَمْ يَهْوَ مَا قُلْتُ(هكذا هو في بعض النسخ ولم يهو وفي كثير منها و لم يهوى بالياء وهي لغة قليلة بإثبات الياء مع الجازم ومنه قراءة من قرأ إنه من يتقى ويصبر بالياء ومنه قول الشاعر ألم يأتيك و الأنباء تنم)فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ جِئْتُ فَإِذَا رَسُولُ اللهِﷺوَ أَبُو بَكْرٍ قَاعِدَيْنِ يَبْكِيَانِ قُلْتُ:-
يَا رَسُولَ اللهِ أَخْبِرْنِي مِنْ أَيِّ شَيْءٍ تَبْكِى أَنْتَ وَ صَاحِبُكَ؟
فَإِنْ وَجَدْتُ بُكَاءً بَكَيْتُ وَ إِنْ لَمْ أَجِدْ بُكَاءً تَبَاكَيْتُ لِبُكَائِكُمَا فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:-
أَبْكِى لِلَّذِى عَرَضَ عَلَيَّ أَصْحَابُكَ مِنْ أَخْذِهِمِ الْفِدَاءَ لَقَدْ عُرِضَ عَلَيَّ عَذَابُهُمْ أَدْنَى مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ-شَجَرَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْ نَبِىِّ اللهِ ﷺ-وَ أَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:{مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ} [الأنفال: 67](يكثر القتل والقهر في العدو)إِلَى قَوْلِهِ {فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا} [الأنفال: 69] فَأَحَلَّ اللهُ الْغَنِيمَةَ لَهُمْ
*البخارى3952 عن ابْنِ مَسْعُودٍ يَقُولُ:-شَهِدْتُ مِنَ الْمِقْدَادِ بْنِ الأَسْوَدِ مَشْهَدًا لَأَنْ أَكُونَ صَاحِبَهُ (صاحب ذلك المشهد)أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا عُدِلَ بِهِ(من كل شيء يقابل به ويوزن من أمور الدنيا)أَتَى النَّبِيَّ ﷺوَ هُوَ يَدْعُو عَلَى الْمُشْرِكِينَ فَقَالَ:-لاَ نَقُولُ كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى:-اذْهَبْ أَنْتَ وَ رَبُّكَ فَقَاتِلاَ وَ لَكِنَّا نُقَاتِلُ عَنْ يَمِينِكَ وَ عَنْ شِمَالِكَ وَ بَيْنَ يَدَيْكَ وَ خَلْفَكَ«فَرَأَيْتُ النَّبِىَّ ﷺأَشْرَقَ وَجْهُهُ وَ سَرَّهُ» يَعْنِى: قَوْلَهُ
*البخارى3953 عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ:-
«اللَّهُمَّ إِنِّي أَنْشُدُكَ عَهْدَكَ وَ وَعْدَكَ اللَّهُمَّ إِنْ شِئْتَ لَمْ تُعْبَدْ» فَأَخَذَ أَبُو بَكْرٍ بِيَدِهِ فَقَالَ:-
حَسْبُكَ فَخَرَجَ وَ هُوَ يَقُولُ: (سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ)[القمر: 45]

(إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ)

أى:اذكروا نعمة اللّه عليكم لما قارب التقاؤكم بعدوكم استغثتم بربكم و طلبتم منه أن يعينكم و ينصركم

(فَاسْتَجَابَ لَكُمْ)و أغاثكم بعدة أمور:—منها: أن اللّه أمدكم

(بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ)يردف بعضهم بعضا-متتابعين
*مسلم عن ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: بَيْنَمَا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ يَشْتَدُّ فِى أَثَرِ رَجُلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَمَامَهُ إِذْ سَمِعَ ضَرْبَةً بِالسَّوْطِ فَوْقَهُ وَ صَوْتَ الْفَارِسِ يَقُولُ:-
أَقْدِمْ حَيْزُومُ فَنَظَرَ إِلَى الْمُشْرِكِ أَمَامَهُ فَخَرَّ مُسْتَلْقِيًا فَنَظَرَ إِلَيْهِ فَإِذَا هُوَ قَدْ خُطِمَ أَنْفُهُ وَ شُقَّ وَجْهُهُ كَضَرْبَةِ السَّوْطِ فَاخْضَرَّ ذَلِكَ أَجْمَعُ فَجَاءَ الْأَنْصَارِيُّ فَحَدَّثَ بِذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ:
«صَدَقْتَ ذَلِكَ مِنْ مَدَدِ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ» فَقَتَلُوا يَوْمَئِذٍ سَبْعِينَ وَ أَسَرُوا سَبْعِينَ
*البخارى3992 عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ عَنْ مُعَاذِ بْنِ رِفَاعَةَ بْنِ رَافِعٍ الزُّرَقِيِّ عَنْ أَبِيهِ وَ كَانَ أَبُوهُ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ قَالَ: -جَاءَ جِبْرِيلُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺفَقَالَ:مَا تَعُدُّونَ أَهْلَ بَدْرٍ(الذين حضروا غزوة بدر) فِيكُمْ قَالَ:-
مِنْ أَفْضَلِ الْمُسْلِمِينَ أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا(كقوله من خيار المسلمين)قَالَ:وَ كَذَلِكَ مَنْ شَهِدَ بَدْرًا مِنَ الْمَلاَئِكَةِ"
*البخارى3007-فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا حَاطِبُ مَا هَذَا؟»

قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لاَ تَعْجَلْ عَلَيَّ إِنِّي كُنْتُ امْرَأً مُلْصَقًا فِي قُرَيْشٍ وَ لَمْ أَكُنْ مِنْ أَنْفُسِهَا
وَ كَانَ مَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ لَهُمْ قَرَابَاتٌ بِمَكَّةَ يَحْمُونَ بِهَا أَهْلِيهِمْ وَ أَمْوَالَهُمْ
فَأَحْبَبْتُ إِذْ فَاتَنِي ذَلِكَ مِنَ النَّسَبِ فِيهِمْ أَنْ أَتَّخِذَ عِنْدَهُمْ يَدًا يَحْمُونَ بِهَا قَرَابَتِى
وَ مَا فَعَلْتُ كُفْرًا وَ لاَ ارْتِدَادًا وَ لاَ رِضًا بِالْكُفْرِ بَعْدَ الإِسْلاَمِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:-
«لَقَدْ صَدَقَكُمْ»قَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللهِ دَعْنِى أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ قَالَ:إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا
وَ مَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَكُونَ قَدِ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ:-اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ" 9

(وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ)أى:إنزال الملائكة(إِلَّا بُشۡرَىٰ)أى:–لتستبشر بذلك نفوسكم

(وَلِتَطۡمَئِنَّ)لتسكن(بِهِۦ قُلُوبُكُمۡۚ)وَ إِلَّا فَهُوَ تَعَالَى قَادِرٌ عَلَى نَصْرِهِمْ عَلَى أَعْدَائِهِمْ بِدُونِ ذَلِكَ

وَ لِهَذَا قَالَ:(وَمَا)و إلا فـ(ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ)ليس بكثرة عَدَدٍ و لا عُدَدٍ

كَمَا قَالَ تَعَالَى: {فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقابِ حَتَّى إِذا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِداءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزارَها ذَلِكَ وَلَوْ يَشاءُ اللَّهُ لانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمالَهُمْ 4سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بالَهُمْ 5 وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَها لَهُمْ}[مُحَمَّدٍ]

وَ قَالَ تَعَالَى:{وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ140 وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ}[آلِ عِمْرَانَ]

فَهَذِهِ حِكَمٌ شَرَعَ اللَّهُ جِهَادَ الْكُفَّارِ بِأَيْدِى الْمُؤْمِنِينَ لِأَجْلِهَا
وَ قَدْ كَانَ تَعَالَى إِنَّمَا يُعَاقِبُ الْأُمَمَ السَّالِفَةَ الْمُكَذِّبَةَ لِلْأَنْبِيَاءِ بِالْقَوَارِعِ الَّتِي تَعُمُّ تِلْكَ الْأُمَّةَ الْمُكَذِّبَةَ:-
كَمَا أَهْلَكَ قَوْمَ نُوحٍ بِالطُّوفَانِ وَ عَادًا الْأُولَى بالدَّبُور وَ ثَمُودَ بِالصَّيْحَةِ وَ قَوْمَ لُوطٍ بِالْخَسْفِ وَ الْقَلْبِ وَ حِجَارَةِ السِّجِّيلِ وَ قَوْمَ شُعَيْبٍ بِيَوْمِ الظُّلَّةِ فَلَمَّا بَعَثَ اللَّهُ تَعَالَى مُوسَى عليه السلام وَ أَهْلَكَ عَدُوَّهُ فِرْعَوْنَ وَ قَوْمَهُ بِالْغَرَقِ فِي الْيَمِّ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَى مُوسَى التَّوْرَاةَ شَرَعَ فِيهَا قِتَالَ الْكُفَّارِ وَ اسْتَمَرَّ الْحُكْمُ فِي بَقِيَّةِ الشَّرَائِعِ بَعْدَهُ عَلَى ذَلِكَ
كَمَا قَالَ{وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ}[الْقَصَصِ: 43]
وَ قَتْلُ الْمُؤْمِنِينَ الْكَافِرِينَ أَشَدُّ إِهَانَةً لِلْكَافِرِينَ وَ أَشْفَى لِصُدُورِ الْمُؤْمِنِينَ كَمَا قَالَ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ:{قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ14 وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ}[التَّوْبَةِ]

(إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ)لَهُ الْعِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ بِهِمَا فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى:-

{إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ51يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ}[غَافِرٍ]

*لا يغالبه مغالب بل هو القهار الذى يخذل من بلغوا من الكثرة و قوة العدد و الآلات ما بلغوا.

(حَكِيمٌ)حيث قدر الأمور بأسبابها و وضع الأشياء مواضعها.
*فِيمَا شَرَعَهُ مِنْ قِتَالِ الْكُفَّارِ مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَى دَمَارِهِمْ وَ إِهْلَاكِهِمْ بِحَوْلِهِ وَ قُوَّتِهِ سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَى.
و من نصره و استجابته لدعائكم أن أنزل عليكم نعاسا 10

(إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ)فيذهب ما في قلوبكم من الخوف و الوجل
*نعَس الشَّخصُ: فترت حواسُّه فقارب النَّومَ

و يكون (أَمَنَةً مِّنۡهُ)لكم و علامة على النصر و الطمأنينة أمانًا منه لكم من خوف عدوكم أن يغلبكم

*كقوله(ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغۡشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمۡۖ وَطَآئِفَةٌ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٍۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ) آل عمران: ١٥٤

*كقوله(فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ٥ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا) الشرح

(وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ)من الحدث(أَصْغَرَ أَوْ أَكْبَرَ)و الخبث وَ هُوَ تَطْهِيرُ الظَّاهِرِ

(وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ)وساوس أَوْ خَاطِرِ سَيِّئٍ(ٱلشَّيۡطَٰنِ)وَ هُوَ تَطْهِيرُ الْبَاطِنِ

*كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي حَقِّ أَهْلِ الْجَنَّةِ:{عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ}فَهَذَا زِينَةُ الظَّاهِرِ {وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا}[الْإِنْسَانِ: 21]أَيْ:مُطَهِّرًا لِمَا كَانَ مِنْ غِلٍّ أَوْ حَسَدٍ أَوْ تَبَاغُضٍ وَ هُوَ زِينَةُ الْبَاطِنِ وَ طَهَارَتُهُ

(وَلِيَرۡبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمۡ)

يثبتها فإن ثبات القلب أصل ثبات البدن بِالصَّبْرِ وَ الْإِقْدَامِ عَلَى مُجَالَدَةِ الْأَعْدَاءِ وَ هُوَ شَجَاعَةُ الْبَاطِنِ

(وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ)وَ هُوَ شَجَاعَةُ الظَّاهِرِ و اللَّهُ أَعْلَمُ.

*فإن الأرض كانت سهلة دهسة فلما نزل عليها المطر تلبدت و ثبتت به الأقدام.

*وَ هَذِهِ نِعْمَةٌ خَفِيَّةٌ أَظْهَرَهَا اللَّهُ تَعَالَى لَهُمْ لِيَشْكُرُوهُ عَلَيْهَا وَ هُوَ أَنَّهُ -تَعَالَى وَ تَقَدَّسَ وَ تَبَارَكَ وَ تَمَجَّدَ- أَوْحَى إِلَى الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ أَنْزَلَهُمْ لِنَصْرِ نَبِيِّهِ وَ دِينِهِ وَ حِزْبِهِ الْمُؤْمِنِيْن يُوحِي إِلَيْهِمْ فِيمَا بَيْنَهُ وَ بَيْنَهُمْ أَنْ يُثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا.قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ:-وَازِرُوهُمْ.وَ قَالَ غَيْرُهُ: قَاتِلُوا مَعَهُمْ 11

﴿ إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنۡهُ ﴾ الانفال ١١

تحدث الدكتور عامر رضوي الطبيب المشرف على متابعة الشيخ ابن عثيمين في مرضه؛ عن آخر ساعة في حياة فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين فقال: كان رحمه الله يقرأ القرآن الكريم، وكان يغيب عن وعيه ثم يُفيق، ثم دخل في غيبوبة، وبعدها بساعة انتقل إلى جوار ربه الكريم، وقد سمعته يتمتم لصعوبة حالته الصحية في لحظات إفاقته، وعندما سألتُ أبناءه عما يتمتم به الشيخ ذكروا لي بأنه كان يقرأ قوله تعالى: ﴿ إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنۡهُ ﴾[1][2].

(إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ)و من ذلك أن اللّه أوحى إلى الملائكة

(أَنِّي مَعَكُمۡ)بالعون و النصر و التأييد

(فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ)أى:ألقوا فى قلوبهم و ألهموهم الجراءة على عدوهم و رغبوهم في الجهاد و فضله.

(سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ)الذى هو أعظم جند لكم عليهم

فإن اللّه إذا ثبت المؤمنين و ألقى الرعب في قلوب الكافرين لم يقدر الكافرون على الثبات لهم و منحهم اللّه أكتافهم.

(فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ)لرقاب.اضْرِبُوا الْهَامَ فَفَلِّقُوهَا وَ احْتَزُّوا الرِّقَابَ فَقَطِّعُوهَا

(وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٍ)مفصل.وَ قَطِّعُوا الْأَطْرَافَ مِنْهُمْ وَ هِيَ أَيْدِيهِمْ وَ أَرْجُلِهِمْ 12

*و هذا خطاب:-

1-إما للملائكة الذين أوحى الله إليهم أن يثبتوا الذين آمنوا فيكون فى ذلك دليل أنهم باشروا القتال يوم بدر

2-أو للمؤمنين يشجعهم اللّه و يعلمهم كيف يقتلون المشركين و أنهم لا يرحمونهم

(ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ)حاربوهما و بارزوهما بالعداوة.

*خَالَفُوهُمَا فَسَارُوا فِي شَقٍّ وَ تَرَكُوا الشَّرْعَ وَ الْإِيمَانَ بِهِ وَ اتِّبَاعَهُ فِي شَقٍّ-وَ هُوَ مَأْخُوذٌ أَيْضًا مِنْ شَقِّ الْعَصَا وَ هُوَ جَعْلُهَا فِرْقَتَيْنِ

(وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ)و من عقابه تسليط أوليائه على أعدائه و تقتيلهم 13

(ذَٰلِكُمۡ)العذاب المذكور

(فَذُوقُوهُ)أيها المشاققون للّه و رسوله عذابا معجلا(وَأَنَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ)

و فى هذه القصة من آيات اللّه العظيمة ما يدل على أن ما جاء به محمد ﷺرسول اللّه حقا:-

1- أن اللّه وعدهم وعدا فأنجزهموه.

2-ما قال اللّه(قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ)الآية.

3-إجابة دعوة اللّه للمؤمنين لما استغاثوه بما ذكره من الأسباب

4-الاعتناء العظيم بحال عباده المؤمنين و تقييض الأسباب التى بها ثبت إيمانهم و ثبتت أقدامهم و زال عنهم المكروه و الوساوس الشيطانية.

5-أن من لطف اللّه بعبده أن يسهل عليه طاعته و ييسرها بأسباب داخلية و خارجية.

يأمر اللّه تعالى عباده المؤمنين بـــ:-

1-الشجاعة الإيمانية 2-و القوة فى أمره 3-و السعى فى جلب الأسباب المقوية للقلوب و الأبدان 14

و نهاهم عن:-الفرار إذا التقى الزحفان فقال:-

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا)فى صف القتال و تزاحف الرجال و اقتراب بعضهم من بعض

(فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ)بل اثبتوا لقتالهم و اصبروا على جلادهم فإن فى ذلك:-

1-نصرة لدين اللّه 2-و قوة لقلوب المؤمنين 3-و إرهابا للكافرين.

*الصحيح المسند من أسباب النزول:داود 2648 عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ:-

نَزَلَتْ فِي يَوْمِ بَدْرٍ{وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ}[الأنفال 16]⑮

(وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ)يَفِرُّ بَيْنَ يَدَيْ قِرْنِهِ مَكِيدَةً لِيُرِيَهُ أَنَّهُ قَدْ خَافَ مِنْهُ فَيَتْبَعُهُ ثُمَّ يَكِرُّ عَلَيْهِ فَيَقْتُلُهُ فَلَا بَأْسَ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ.

(أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ)رجع

*فَرَّ مِنْ هَاهُنَا إِلَى فِئَةٍ أُخْرَى مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُعَاوِنُهُمْ وَ يُعَاوِنُوه فَيَجُوزُ لَهُ ذَلِكَ حَتَّى وَ لَوْ كَانَ فِي سَرِيَّةٍ فَفَرَّ إِلَى أَمِيرِهِ أَوْ إِلَى الْإِمَامِ الْأَعْظَمِ دَخَلَ فِي هَذِهِ الرُّخْصَة.

*فَأَمَّا إِنْ كَانَ الْفِرَارُ لَا عَنْ سَبَبٍ مِنْ هَذِهِ الْأَسْبَابِ فَإِنَّهُ حَرَامٌ وَ كَبِيرَةٌ مِنَ الْكَبَائِرِ

*البخارى2766 عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺعَنِ النَّبِيِّ ﷺ:-«اجْتَنِبُوا(ابتعدوا)السَّبْعَ المُوبِقَاتِ(المهلكات)»

قَالُوا:-يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُنَّ؟قَالَ:-«الشِّرْكُ بِاللَّهِ وَ السِّحْرُ(هو في اللغة عبارة عما لطف وخفي سببه ومعنى صرف الشيء عن وجهه ويستعمل بمعنى الخداع. والمراد هنا ما يفعله المشعوذون من تخييلات وتمويه تأخذ أبصار المشاهدين وتوهمهم الإتيان بحقيقة أو تغييرها)وَ قَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالحَقِّ(كالقتل قصاصا)وَ أَكْلُ الرِّبَا وَ أَكْلُ مَالِ اليَتِيمِ وَ التَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ(الفرار عن القتال يوم ملاقاة الكفار والزحف في الأصل الجماعة الذين يزحفون إلى العدو أي يمشون إليهم بمشقة مأخوذ من زحف الصبى إذا مشى على مقعدته)وَ قَذْفُ(هو الاتهام والرمى بالزنا)المُحْصَنَاتِ(جمع محصنة وهي العفيفة التي حفظت فرجها وصانها الله من الزنا)المُؤْمِنَاتِ الغَافِلاَتِ(البريئات اللواتى لا يفطن إلى ما رمين به من الفجور)»

(بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ)مقره(جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ)

و هذا يدل على أن الفرار من الزحف من غير عذر من أكبر الكبائر كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة و كما نص هنا على وعيده بهذا الوعيد الشديد.

و مفهوم الآية:-

*أن المتحرف للقتال و هو الذي ينحرف من جهة إلى أخرى ليكون أمكن له فى القتال و أنكى لعدوه فإنه لا بأس بذلك لأنه لم يول دبره فارا و إنما ولى دبره ليستعلى على عدوه أو يأتيه من محل يصيب فيه غرته أو ليخدعه بذلك أو غير ذلك من مقاصد المحاربين و أن المتحيز إلى فئة تمنعه وتعينه على قتال الكفار فإن ذلك جائز

*فإن كانت الفئة فى العسكر فالأمر فى هذا واضح و إن كانت الفئة فى غير محل المعركة كانهزام المسلمين بين يدى الكافرين و التجائهم إلى بلد من بلدان المسلمين أو إلى عسكر آخر من عسكر المسلمين فقد ورد من آثار الصحابة ما يدل على أن هذا جائز و لعل هذا يقيد بما إذا ظن المسلمون أن الانهزام أحمد عاقبة و أبقى عليهم.

*أما إذا ظنوا غلبتهم للكفار فى ثباتهم لقتالهم فيبعد–فى هذه الحال–أن تكون من الأحوال المرخص فيها لأنه–على هذا– لا يتصور الفرار المنهى عنه و هذه الآية مطلقة و سيأتى فى آخر السورة تقييدها بالعدد⑯

◄ ﴿ إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةٗ مِّنۡهُ ﴾ الانفال ١١

تحدث الدكتور عامر رضوي الطبيب المشرف على متابعة الشيخ ابن عثيمين في مرضه؛ عن آخر ساعة في حياة فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين فقال: كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقرأ القرآن الكريم، وكان يغيب عن وعيه ثم يُفيق، ثم دخل في غيبوبة، وبعدها بساعة انتقل إلى جوار ربه الكريم، وقد سمعته يتمتم لصعوبة حالته الصحية في لحظات إفاقته، وعندما سألتُ أبناءَه عما يتمتم به الشيخ ذكروا لي بأنه كان يقرأ قوله تعالى: ﴿ إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةٗ مِّنۡهُ ﴾(١)(٢).

فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡۚ وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبۡلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيۡدِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسۡتَفۡتِحُواْ فَقَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡفَتۡحُۖ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدۡ وَلَن تُغۡنِيَ عَنكُمۡ فِئَتُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَوۡ كَثُرَتۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢٥﴾

يقول تعالى–لما انهزم المشركون يوم بدر و قتلهم المسلمون–(فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ)بحولكم و قوتكم

(وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡۚ)حيث أعانكم على ذلك بما تقدم ذكره.

(وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰۚ)

*الصحيح المسند من أسباب النزول:الكبير للطبرانى3128 عَنْ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ قَالَ: -
لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ أَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺفَأَخَذَ كَفًّا مِنَ الْحَصْبَاءِ فَاسْتَقْبَلَنَا بِهِ فَرَمَانَا بِهَا و قَالَ:«شَاهَتِ الْوُجُوهُ»
فَانْهَزَمْنَا فَأَنْزَلَ اللهُ:{وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى} [الأنفال: 17]

*و ذلك أن النبى ﷺوقت القتال دخل العريش و جعل يدعو اللّه و يناشده في نصرتهم خرج منه فأخذ حفنة من تراب فرماها في وجوه المشركين فأوصلها اللّه إلى وجوههم فما بقىمنهم واحد إلا و قد أصاب وجهه و فمه و عينيه منها فحينئذ انكسر حدهم و فتر زندهم و بان فيهم الفشل و الضعف فانهزموا.

يقول تعالى لنبيه: لست بقوتك – حين رميت التراب – أوصلته إلى أعينهم و إنما أوصلناه إليهم بقوتنا و اقتدارنا.(قال الشيخ العدوى : أورد بن كثير جملة أسانيد لا تخلو من مقال)

(وَلِيُبۡلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ)ليُعَرِّف الْمُؤْمِنِينَ مِنْ نِعْمَتِهِ عَلَيْهِم

أى:إن اللّه تعالى قادر على انتصار المؤمنين من الكافرين من دون مباشرة قتال و لكن اللّه أراد أن يمتحن المؤمنين و يوصلهم بالجهاد إلى أعلى الدرجات و أرفع المقامات و يعطيهم أجرا حسنا و ثوابا جزيلا.

مِنْ:-إظْهَارِهِمْ عَلَى عَدُوِّهِمْ مَعَ:-1-كَثْرَة عَدُوِّهِمْ 2-وَ قِلَّة عَدَدِهِمْ

لِ:-1-يَعْرِفُوا بِذَلِكَ حَقَّهُ 2-وَ يَشْكُرُوا بِذَلِكَ نِعْمَتَهُ.

(إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ)يسمع تعالى ما أسر به العبد و ما أعلن

(عَلِيمٌ)يعلم ما فى قلبه من النيات الصالحة و ضدها فيقدر على العباد أقدارا موافقة لعلمه و حكمته و مصلحة عباده و يجزى كلا بحسب نيته و عمله 17

(ذَٰلِكُمۡ)النصر من اللّه لكم

(وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ)مضعف كل(كَيۡدِ)مكر يكيد(ٱلۡكَٰفِرِينَ)بهلإسلام و أهله و جاعل مكرهم فِي تَبَارٍ وَ دَمَارٍ 18

(إِن تَسۡتَفۡتِحُواْ)أيها المشركون أى:–تطلبوا من اللّه أن يوقع بأسه و عذابه على المعتدين الظالمين.
تَسْتَنْصِرُوا وَ تَسْتَقْضُوا اللَّهَ وَ تَسْتَحْكِمُوهُ أَنْ يَفْصِلَ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَ أَعْدَائِكُمُ الْمُؤْمِنِينَ فَقَدْ جَاءَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ
*الصحيح المسند من أسباب النزول:-عن بن جرير:-عَنْ عبد الله بن ثعلبة بن صُعَيْرٍ أَنَّ أَبَا جَهْلٍ قَالَ يَوْمَ بَدْرٍ:-اللَّهُمَّ أَقْطَعُنَا لِلرَّحِمِ وَ آتَانَا بِمَا لَا نَعْرِفُ فَأَحْنِهِ الْغَدَاةَ-وَ كَانَ ذَلِكَ اسْتِفْتَاحًا مِنْهُ -فَنَزَلَتْ:-
{إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ} إِلَى آخِرِ الْآيَةِ.

(فَقَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡفَتۡحُۖ)حين أوقع اللّه بكم من عقابه ما كان نكالا لكم و عبرة للمتقين

(وَإِن تَنتَهُواْ)عن الاستفتاح-عَمَّا أَنْتُمْ فِيهِ مِنَ الْكُفْرِ بِاللَّهِ وَ التَّكْذِيبِ لِرَسُولِهِ

(فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ)لأنه ربما أمهلتم و لم يعجل لكم النقمة.

(وَإِن تَعُودُواْ)إلى الاستفتاح و قتال حزب الله المؤمنين

(نَعُدۡ)فى نصرهم عليكم.كقوله(وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَاۘ)الإسراء: ٨
*وَ إِنْ عُدْتُمْ إِلَى مَا كُنْتُمْ فِيهِ مِنَ الْكُفْرِ وَ الضَّلَالَةِ نَعُدْ لَكُمْ بِمِثْلِ هَذِهِ الْوَاقِعَةِ.

(وَلَن تُغۡنِيَ عَنكُمۡ فِئَتُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَوۡ كَثُرَتۡ)أعوانكم و أنصاركم الذين تحاربون و تقاتلون معتمدين عليهم شَيئا

(وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ)و من كان اللّه معه فهو المنصور و إن كان ضعيفا قليلا عدده

*و هذه المعية التى أخبر اللّه أنه يؤيد بها المؤمنين تكون بحسب ما قاموا به من أعمال الإيمان.

فإذا أديل العدو على المؤمنين فى بعض الأوقات فليس ذلك إلا تفريطا من المؤمنين و عدم قيام بواجب الإيمان و مقتضاه و إلا فلو قاموا بما أمر اللّه به من كل وجه لما انهزم لهم راية انهزاما مستقرا و لا أديل عليهم عدوهم أبدا 19

*لما أخبر تعالى أنه مع المؤمنين أمرهم أن يقوموا بمقتضى الإيمان الذى يدركون به معيته فقال:–

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ)بامتثال أمرهما و اجتناب نهيهما.

(وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ)أى:–عن هذا الأمر الذى هو طاعة اللّه و طاعة رسوله.

الأمر بطاعة الرسول و حذر مخالفته و ثمرات التقوى 20-29

(وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ)

ما يتلى عليكم من كتاب اللّه و أوامره و وصاياه و نصائحه فتوليكم فى هذه الحال من أقبح الأحوال(٢٠)

(وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ)

أى:لا تكتفوا بمجرد الدعوى الخالية التى لا حقيقة لها فإنها حالة لا يرضاها اللّه و لا رسوله

فليس الإيمان بالتمنى و التحلى و لكنه ما وقر فى القلوب و صدقته الأعمال(٢١)

(۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ)من لم تفد فيهم الآيات و النذر و هم:-

(ٱلصُّمُّ)عن استماع الحق(ٱلۡبُكۡمُ)عن النطق به.

(ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ)ما ينفعهم و يؤثرونه على ما يضرهم فهؤلاء شر عند اللّه من جميع الدواب

لأن اللّه أعطاهم أسماعا و أبصارا و أفئدة ليستعملوها فى طاعة اللّه فاستعملوها فى معاصيه و عُدِمُوا-بذلك-

الخير الكثير فإنهم كانوا بصدد أن يكونوا من خيار البرية.

فأبوا هذا الطريق و اختاروا لأنفسهم أن يكونوا من شر البرية

و السمع الذى نفاه اللّه عنهم :-سمع المعنى المؤثر فى القلب

و أما سمع الحجة:- فقد قامت حجة اللّه تعالى عليهم بما سمعوه من آياته

و إنما لم يسمعهم السماع النافع لأنه لم يعلم فيهم خيرا يصلحون به لسماع آياته(٢٢)

(وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ)على الفرض و التقدير-لَأَفْهَمَهُمْ وَ تَقْدِيرُ الْكَلَامِ:-

وَ لَكِنْ لَا خَيْرَ فِيهِمْ فَلَمْ يُفْهِمْهُمْ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّهُ

(وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ)أَفْهَمَهُمْ(لَتَوَلَّواْ)عن الطاعة-عَنْ ذَلِكَ قَصْدًا وَ عِنَادًا بَعْدَ فَهْمِهِمْ ذَلِكَ

(وَّهُم مُّعۡرِضُونَ)عَنْهُ-لا التفات لهم إلى الحق بوجه من الوجوه

و هذا دليل على أن اللّه تعالى لا يمنع الإيمان و الخير إلا لمن لا خير فيه الذى لا يزكو لديه و لا يثمر عنده.

و له الحمد تعالى و الحكمة فى هذا(٢٣)

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ)

يأمر تعالى عباده المؤمنين بما يقتضيه الإيمان منهم و هــو:-الاستجابة للّه و للرسول

أى:الانقياد لما أمرا به و المبادرة إلى ذلك و الدعوة إليه و الاجتناب لما نهيا عنه و الانكفاف عنه و النهى عنه

*البخارى4647 عَنْ أَبِي سَعِيدِ بْنِ المُعَلَّى ﷺقَالَ:-كُنْتُ أُصَلِّي فَمَرَّ بِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺفَدَعَانِي فَلَمْ آتِهِ حَتَّى صَلَّيْتُ ثُمَّ أَتَيْتُهُ فَقَالَ:"مَا مَنَعَكَ أَنْ تَأْتِيَ؟أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ:-{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ}[الأنفال24]

"ثُمَّ قَالَ: «لَأُعَلِّمَنَّكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ فِي القُرْآنِ قَبْلَ أَنْ أَخْرُجَ»فَذَهَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺلِيَخْرُجَ فَذَكَرْتُ لَهُ

وَ قَالَ مُعَاذٌ:عن أَبِي سَعِيدٍ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺبِهَذَا وَ قَالَ:-هِيَ:-الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ السَّبْعُ المَثَانِي

(إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)قيل:الحق.قيل: هُوَ هَذَا الْقُرْآنُ فِيهِ النَّجَاةُ وَ التُّقَاةُ وَ الْحَيَاةُ.
قيل:فَفِى الْإِسْلَامِ إِحْيَاؤُهُمْ بَعْدَ مَوْتِهِمْ بِالْكُفْرِ.
قيل:لِلْحَرْبِ الَّتِى أَعَزَّكُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا بَعْدَ الذُّلِّ وَ قَوَّاكُمْ بِهَا بَعْدَ الضَّعْفِ وَ مَنَعَكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ بَعْدَ الْقَهْرِ مِنْهُمْ لَكُمْ.
*وصف ملازم لكل ما دعا اللّه و رسوله إليه و بيان لفائدته و حكمته فإن حياة القلب و الروح بعبودية اللّه تعالى و لزوم طاعته و طاعة رسوله على الدوام.ثم حذر عن عدم الاستجابة للّه و للرسول فقال:-

(وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ)

فإياكم أن تردوا أمر اللّه أول ما يأتيكم فيحال بينكم و بينه إذا أردتموه بعد ذلك و تختلف قلوبكم فإن اللّه يحول بين المرء و قلبه يقلب القلوب حيث شاء و يصرفها أنى شاء.فليكثر العبد من قول: -
يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك يا مصرف القلوب اصرف قلبى إلى طاعتك.
*يَحُولُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ وَ بَيْنَ الْكُفْرِ وَ بَيْنَ الْكَافِرِ وَ بَيْنَ الْإِيمَانِ.
*الكبرى للنسائى691 عن النَّوَّاسَ بْنَ سَمْعَانَ الْكِلَابِيَّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺيَقُولُ:-
«مَا مِنْ قَلْبٍ إِلَّا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ إِنْ شَاءَ أَقَامَهُ وَ إِنْ شَاءَ أَزَاغَهُ»
وَ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺيَقُولُ:-«اللهُمَّ مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قُلُوبَنَا عَلَى دِينِكَ وَ الْمِيزَانُ بِيَدِ الرَّحْمَنِ يَرْفَعُ أَقْوَامًا وَ يَخْفِضُ آخَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»
*مسلم(2654) عن عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنه يَقُولُ:-أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:
«إِنَّ قُلُوبَ بَنِى آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ»
ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:-«اللهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ»

(وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ)تجمعون ليوم لا ريب فيه فيجازى المحسن بإحسانه و المسىء بعصيانه(٢٤)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾ الأنفال: ٢٤-٢٦

من الآيات التي تأثرت بها؛ تلك الآيات التي يتودَّد الله جل وعلا فيها إلى عباده وهو غنيٌّ عنهم، يقول الله تعالى في سورة الأنفال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٢٤ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢٥ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾(٢).

ما أحقرنا حين نتجرأ على الله بالمعاصي! وكلما وسوس لي الشيطان بمعصية تذكرتُ هذه الآيات، واستحييتُ من الله، فنحن منذ لحظة استيقاظنا إلى نومنا نتقلب في نعم الله الذي يتودد إلينا بها، وهو الغني عنا سبحانه!

(وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ)

*اخْتِبَارًا وَ مِحْنَةً يَعُمُّ بِهَا الْمُسِيءَ وَ غَيْرَهُ لَا يَخُصُّ بِهَا أَهْلَ الْمَعَاصِى وَ لَا مَنْ بَاشَرَ الذَّنْبَ بَلْ يَعُمُّهُمَا حَيْثُ لَمْ تُدْفَعْ وَ تُرْفَعْ.

*أَحْمَدُ 1414 عَنْ مُطَرِّفٍ قَالَ: قُلْنَا لِلزُّبَيْرِ:-يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ مَا جَاءَ بِكُمْ ضَيَّعْتُمُ الْخَلِيفَةَ حَتَّى قُتِلَ ثُمَّ جِئْتُمْ تَطْلُبُونَ بِدَمِهِ؟ فَقَالَ الزُّبَيْرُ:-إِنَّا قَرَأْنَاهَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَ أَبِي بَكْرٍ وَ عُمَرَ وَ عُثْمَانَ:

{وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ} [الأنفال: 25] خَاصَّةً لَمْ نَكُنْ نَحْسَبُ أَنَّا أَهْلُهَا حَتَّى وَقَعَتْ مِنَّا حَيْثُ وَقَعَتْ

*أَمَرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَلَّا يُقِرُّوا الْمُنْكَرَ بَيْنَ ظَهْرَانِيهِمْ إِلَيْهِمْ فَيَعُمَّهُمُ اللَّهُ بِالْعَذَابِ.

*البخارى2493 عن النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:-

مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ (المستقيم مع أوامر الله تعالى ولا يتجاوز ما منع الله تعالى منه والآمر بالمعروف الناهى عن المنكر) وَ الْوَاقِعِ فِيهَا (التارك للمعروف المرتكب للمنكر) كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا (اقترعوا ليأخذ كل منهم سهما أي نصيبا.) عَلَى سَفِينَةٍ فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا وَ بَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ المَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ فَقَالُوا:-

لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَ لَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَ مَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا وَ إِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ (منعوهم من خرق السفينة) نَجَوْا وَ نَجَوْا جَمِيعًا

*بل تصيب فاعل الظلم و غيره و ذلك إذا ظهر الظلم فلم يُغَيَّرْ فإن عقوبته تعم الفاعل و غيره

و تقوى هذه الفتنة بالنهى عن المنكر و قمع أهل الشر و الفساد و أن لا يمكنوا من المعاصى و الظلم مهما أمكن

(وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ) لمن تعرض لمساخطه و جانب رضاه ﴿٢٥﴾

◄ المحك الحقيقي — الأنفال ٢٤

استوقفتني آيةٌ عندما كنت أحفظ سورة الأنفال، إنها قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ ﴾ [1]، وبحثتُ عن تفسيرها وتأثرت به جدًا، فأصبحت بعد ذلك المقياس والمحك لكل موقف يمر بي: هل أنا في المسار الصحيح، أم حِدْتُ عن الطريق؟ فتستحثني للإسراع في الاختيار.

في الآية دعوةٌ بنداء الإيمان، وأمرٌ بالمسارعة إلى طاعة كل أمرٍ من الله ورسوله؛ خشيةَ أن يُحال بينكَ وبين قلبكِ إذا توانيتَ أو ترددتَ، ثم تتمنى بعد ذلك الوصول إليه فلا تستطيع!.

◄ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾ الانفال ٢٤

من الآيات التي تأثرت بها؛ تلك الآيات التي يتودَّد الله جل وعلا فيها إلى عباده وهو غنيٌّ عنهم، يقول الله تعالى في سورة الأنفال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾[٢].

ما أحقرنا حين نتجرأ على الله بالمعاصي! وكلما وسوس لي الشيطان بمعصية تذكرتُ هذه الآيات، واستحييتُ من الله، فنحن منذ لحظة استيقاظنا إلى نومنا نتقلب في نعم الله الذي يتودد إلينا بها، وهو الغني عنا سبحانه!

◄ ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ ﴾ الانفال ٢٤

يقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴾[١].

إنها رسالة لكلِّ أبٍ ومربٍّ وداعية: إذا كان الله يحول بين المرء وقلبه الذي بين جنبيه؛ فكيف بقلب ابنه أو تلميذه أو من يدعوه!

اللهم يا مقلب القلوب؛ ثبت قلوبنا على دينك.

وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ
وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ
وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ
أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ
وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ
وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدۡ سَمِعۡنَا
لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا
هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٢﴾
وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴿٣٣﴾

*يقول تعالى ممتنا على عباده في نصرهم بعد الذلة و تكثيرهم بعد القلة و إغنائهم بعد العيلة.

(وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ)مقهورون تحت حكم غيركم

(تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ)يأخذوكم(ٱلنَّاسُ)

(فَـَٔاوَىٰكُمۡ)فجعل لكم مأوى تأوون إليه و هو «المدينة»

(وَأَيَّدَكُم)قوّاكم(بِنَصۡرِهِۦ)و انتصر من أعدائكم على أيديكم يوم «بدر»

(وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ)و غنمتم من أموالهم ما كنتم به أغنياء.

(لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ)اللّه على منته العظيمة و إحسانه التام بأن تعبدوه و لا تشركوا به شيئا.

*قَالَ قَتَادَةُ بْنُ دِعامة السَّدوسى رَحِمَهُ اللَّهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:-

{وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ}قَالَ:-

كَانَ هَذَا الْحَيُّ مِنَ الْعَرَبِ أَذَلَّ النَّاسِ ذُلا وَ أَشْقَاهُ عَيْشًا وَ أَجْوَعَهُ بُطُونًا وَ أَعْرَاهُ جُلُودًا وَ أَبْيَنَهُ ضَلَالًا مَكْعُومِينَ عَلَى رَأْسِ حَجَرٍ بَيْنَ الْأَسَدَيْنِ:-فَارِسَ وَ الرُّوم

وَ لَا وَ اللَّهِ مَا فِي بِلَادِهِمْ يَوْمَئِذ مِنْ شَيْءٍ يُحْسَدُونَ عَلَيْهِ مَنْ عَاشَ مِنْهُمْ عَاشَ شَقِيًّا وَ مَنْ مَاتَ مِنْهُمْ رُدِّىَ فِي النَّارِ يُؤْكَلُونَ وَ لَا يَأْكُلُونَ وَ اللَّهِ مَا نَعْلَمُ قَبِيلا مِنْ حَاضِرِ أَهْلِ الْأَرْضِ يَوْمَئِذٍ كَانُوا أَشَرَّ مَنْزِلًا مِنْهُمْ حَتَّى جَاءَ اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ فَمَكَّنَ بِهِ فِي الْبِلَادِ وَ وَسَّعَ بِهِ فِي الرِّزْقِ وَ جَعَلَهُمْ بِهِ مُلُوكًا عَلَى رِقَابِ النَّاسِ.

وَ بِالْإِسْلَامِ أَعْطَى اللَّهُ مَا رَأَيْتُمْ فَاشْكُرُوا لِلَّهِ نِعَمَهُ فَإِنَّ رَبَّكُمْ مُنْعِم يُحِبُّ الشُّكْرَ وَ أَهْلُ الشُّكْرِ فِي مَزِيدٍ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى26

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ)بترك ما أوجبه الله عليكم و فِعْل ما نهاكم عنه

(وَتَخُونُوٓاْ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ)و لا تفرطوا فيما ائتمنكم الله عليه

(وَأَنتُمْ تَعْـلَمُونَ)أنه أمانة يجب الوفاء بها.

*يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يؤدوا ما ائتمنهم اللّه عليه من أوامره و نواهيه فإن الأمانة قد عرضها اللّه على السماوات و الأرض و الجبال فأبين أن يحملنها و أشفقن منها و حملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا

*فمن أدى الأمانة:–استحق من اللّه الثواب الجزيل

*و من لم يؤدها بل خانها:–

1–استحق العقاب الوبيل 2–و صار خائنا للّه و للرسول و لأمانته

3–منقصا لنفسه بكونه اتصفت نفسه بأخس الصفات و أقبح الشيات

و هي الخيانة مفوتا لها أكمل الصفات و أتمها و هي الأمانة

*وَ فِي الصَّحِيحَيْنِ قِصَّةُ "حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ"

أَنَّهُ كَتَبَ إِلَى قُرَيْشٍ يُعْلِمُهُمْ بِقَصْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺإِيَّاهُمْ عَامَ الْفَتْحِ فَأَطْلَعَ اللَّهُ رَسُولَهُ عَلَى ذَلِكَ فَبَعَثَ فِي إِثْرِ الْكِتَابِ فَاسْتَرْجَعَهُ وَ اسْتَحْضَرَ حَاطِبًا فَأَقَرَّ بِمَا صَنَعَ فَقَامَ عمر بن الخطاب

فقال:-يا رسول الله أَلَا أَضْرِبُ عُنُقَهُ فَإِنَّهُ قَدْ خَانَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ الْمُؤْمِنِينَ؟ فَقَالَ:-

"دَعْهُ فَإِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا مَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: "اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ"

قُلْتُ: وَ الصَّحِيحُ أَنَّ الْآيَةَ عَامَّةٌ وَ إِنْ صَحَّ أَنَّهَا وَرَدَتْ عَلَى سَبَبٍ خَاصٍّ فَالْأَخْذُ بِعُمُومِ اللَّفْظِ لَا بِخُصُوصِ السَّبَبِ عِنْدَ الْجَمَاهِيرِ مِنَ الْعُلَمَاءِ. وَ الْخِيَانَةُ تَعُمُّ الذُّنُوبَ الصِّغَارَ وَ الْكِبَارَ اللَّازِمَةَ وَ الْمُتَعَدِّيَةَ(٢٧)

*و لما كان العبد ممتحنا بأمواله و أولاده فربما حمله محبة ذلك على تقديم هوى نفسه على أداء أمانته

(وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْـنَةٌ)أخبر اللّه تعالى أن الأموال و الأولاد فتنة يبتلى اللّه بهما عباده

و أنها عارية ستؤدى لمن أعطاها و ترد لمن استودعها

(وَأَنَّ ٱللَّهَ عِنـدَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ)فإن كان لكم عقل و رَأْىٌ فآثروا فضله العظيم على لذة صغيرة فانية مضمحلة

فالعاقل:–1–يوازن بين الأشياء 2–و يؤثر أولاها بالإيثار و أحقها بالتقديم.

*البخارى 14-عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺقَالَ:-«فَوَالَّذِى نَفْسى بِيَدِهِ(أقسم بالله تعالى الذى حياتى بيده)

لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ(مقدما لديه وعنوان ذلك الطاعة و الاقتداء وترك المخالفة)مِنْ وَالِدِهِ وَ وَلَدِهِ»(٢٨)

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَـتَّقُواْ ٱللَّهَ)امتثال العبد لتقوى ربه عنوان السعادة و علامة الفلاح و قد رتب اللّه على التقوى من خير الدنيا و الآخرة شيئا كثيرا

فذكر هنا أن من اتقى اللّه حصل له أربعة أشياء كل واحد منها خير من الدنيا و ما فيها: –

الأول:–(يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا):–الفرقان:–و هو العلم و الهدى الذي يفرق به صاحبه بين:–

الهدى و الضلال و الحق و الباطل و الحلال و الحرام و أهل السعادة من أهل الشقاوة.

الثاني و الثالث:-(وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ)تكفير السيئات و مغفرة الذنوب

و كل واحد منهما داخل في الآخر عند الإطلاق

و عند الاجتماع:-يفسر تكفير السيئات بالذنوب الصغائر و مغفرة الذنوب بتكفير الكبائر.

الرابع:-(وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ)الأجر العظيم و الثواب الجزيل لمن اتقاه و آثر رضاه على هوى نفسه(٢٩)

كقوله(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ)الحديد: ٢٨

*(و) اذكر أيها الرسول ما منَّ اللّه به عليك

(وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ)حين تشاور المشركون في دار الندوة فيما يصنعون بالنبى ﷺ

مكر المشركين بالنبى ﷺ و عقابهم 30-40

(لِيُثۡبِتُوكَ)إما أن يثبتوه عندهم بالحبس و يوثقوه.

(أَوۡ يَقۡتُلُوكَ)و إما أن يقتلوه فيستريحوا-بزعمهم-من شره.

(أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ)و إما أن يخرجوه و يجلوه من ديارهم.

(وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ)يكيدون لك و ردَّ الله مكرهم عليهم جزاء لهم ويمكر الله

(وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ)

فكلُّ أبدى من هذه الآراء رأيا رآه فاتفق رأيهم على رأى:-رآه شريرهم أبو جهل لعنه اللّه

و هو أن يأخذوا من كل قبيلة من قبائل قريش فتى و يعطوه سيفا صارما و يقتله الجميع قتلة رجل واحد ليتفرق دمه في القبائل.

فيرضى بنو هاشم ثَمَّ بديته فلا يقدرون على مقاومة سائر قريش فترصدوا للنبي ﷺ في الليل ليوقعوا به إذا قام من فراشه.

فجاءه الوحي من السماء و خرج عليهم فذرَّ على رءوسهم التراب و خرج و أعمى اللّه أبصارهم عنه

حتى إذا استبطؤوه جاءهم آت و قال:-

خيبكم اللّه قد خرج محمد و ذَرَّ على رءوسكم التراب.فنفض كل منهم التراب عن رأسه و منع اللّه رسوله منهم

و أذن له في الهجرة إلى المدينة فهاجر إليها و أيده اللّه بأصحابه المهاجرين و الأنصار

و لم يزل أمره يعلو حتى دخل مكة عنوة و قهر أهلها فأذعنوا له و صاروا تحت حكمه بعد أن خرج مستخفيا منهم خائفا على نفسه.

فسبحان اللطيف بعبده الذى لا يغالبه مغالب المستدرك:-583 عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:-

دَخَلَتْ فَاطِمَةُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺوَ هِيَ تَبْكِي فَقَالَ:«يَا بُنَيَّةُ مَا يُبْكِيكِ؟»

قَالَتْ: يَا أَبَتِ مَا لِي لَا أَبْكِي وَ هَؤُلَاءِ الْمَلَأُ مِنْ قُرَيْشٍ فِي الْحِجْرِ يَتَعَاقَدُونَ بِاللَّاتِ وَ الْعُزَّى وَ مَنَاةَ الثَّالِثَةِ الْأُخْرَىٰلَوْ قَدْ رَأَوْكَ لَقَامُوا إِلَيْكَ فَيَقْتُلُونَكَ وَ لَيْسَ مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا وَقَدْ عَرَفَ نَصِيبَهُ مِنْ دَمِكَ

فَقَالَ:-«يَا بُنَيَّةُ ائْتِنِي بِوَضُوءٍ»فَتَوَضَّأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺثُمَّ خَرَجَ إِلَى الْمَسْجِدِ فَلَمَّا رَأَوْهُ قَالُوا: -

هَا هُوَ ذَا فَطَأْطَئُوا رُءُوسَهُمْ وَ سَقَطَتْ أَذْقَانُهُمْ بَيْنَ يَدَيْهِمْ فَلَمْ يَرْفَعُوا أَبْصَارَهُمْ فَتَنَاوَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺقَبْضَةً مِنْ تُرَابٍ فَحَصَبَهُمْ بِهَا وَ قَالَ:-«شَاهَتِ الْوُجُوهُ»

فَمَا أَصَابَ رَجُلًا مِنْهُمْ حَصَاةٌ مِنْ حَصَاتِهِ إِلَّا قُتِلَ يَوْمَ بَدْرٍ كَافِرًا ٣٠

*يقول تعالى في بيان عناد المكذبين للرسول ﷺ:-(وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا)الدالة على صدق ما جاء به الرسول

(قَالُواْ قَدۡ سَمِعۡنَا)هذا من قبل(لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ)القرآن

و هذا من عنادهم و ظلمهم و إلا فقد تحداهم اللّه أن يأتوا بسورة من مثله و يدعوا من استطاعوا من دون اللّه

فلم يقدروا على ذلك و تبين عجزهم.

فهذا القول الصادر من هذا القائل مجرد دعوى كذبه الواقع و قد علم أنه ﷺ أُمِّيٌّ لا يقرأ و لا يكتب و لا رحل ليدرس من أخبار الأولين فأتى بهذا الكتاب الجليل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

(إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ)

جَمْعُ أُسْطُورَةٍ أَيْ:-كُتُبُهُمُ اقْتَبَسَهَا فَهُوَ يَتَعَلَّمُ مِنْهَا وَ يَتْلُوهَا عَلَى النَّاسِ. وَ هَذَا هُوَ الْكَذِبُ الْبَحْتُ

كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْهُمْ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى:-{وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلا5 قُلْ أَنزلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا}[الْفُرْقَانِ]أَيْ:لِمَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَ أَنَابَ؛ فَإِنَّهُ يَتَقَبَّلُ مِنْهُ وَ يَصْفَحُ عَنْهُ ٣١

(وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا)الذي يدعو إليه محمد

(هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ)

قالوه على وجه الجزم منهم بباطلهم و الجهل بما ينبغي من الخطاب.

فلو أنهم إذ أقاموا على باطلهم من الشبه و التمويهات ما أوجب لهم أن يكونوا على بصيرة و يقين منه

قالوا لمن ناظرهم و ادعى أن الحق معه:-

إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له لكان أولى لهم و أستر لظلمهم.

فمنذ قالوا:-(وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ)

علم بمجرد قولهم أنهم السفهاء الأغبياء الجهلة الظالمون فلو عاجلهم اللّه بالعقاب لما أبقى منهم باقية

*كقوله(وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَيَأۡتِيَنَّهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ) العنكبوت: ٥٣ ٣٢

*(فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ) الشعراء: ١٨٧

و لكنه تعالى دفع عنهم العذاب بسبب وجود الرسول بين أظهرهم فقال:-

(﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ﴾)فوجوده ﷺبين أظهرهم أمنة لهم من العذاب.

و كانوا مع قولهم هذه المقالة التى يظهرونها على رءوس الأشهاد يدرون بقبحها فكانوا يخافون من وقوعها فيهم فيستغفرون اللّه تعالى فلهذا قال تعالى:–

(﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾)فهذا مانع يمنع من وقوع العذاب بهم بعد ما انعقدت أسبابه

*الصحيح المسند من أسباب النزول:البخارى4648 عن أَنَس بْنَ مَالِكٍ ﷺقَالَ أَبُو جَهْلٍ: -

اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ "

فَنَزَلَتْ:{وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ33 وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} [الأنفال]٣٣

مكانة وأيّ مكانة! الأنفال ٣٣

لا يمر شيءٌ على قلب الإنسان فيغيِّرُ فيه ويبدِّلُ مثلَ كلام الله عز وجل، وكنتُ كلما مررتُ على الآيات التي يمتدح الله فيها أنبياءه وعباده الصالحين، وكيف علا شأنهم عنده سبحانه، كقوله تعالى في نبينا محمد ﷺ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡ﴾[1]؛ ظهر لي إكرامه تعالى لنبيِّه ﷺ، فَلِعِظَمِ مكانته عنده سبحانه لن يعذب القوم وهو بينهم، فأقف متأملة لهذه الرِّفعة.

وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ۚ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ۚ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ ۚ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٤٠﴾

(وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ)أى:أى شيء يمنعهم من عذاب اللّه و قد فعلوا ما يوجب ذلك

(وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ)

و هو صد الناس عن المسجد الحرام خصوصا صدهم النبي ﷺ و أصحابه الذين هم أولى به منهم

*كقوله (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ ۚ)
البقرة: ٢١٧

و لهذا قال: (وَمَا كَانُوا)أى:المشركون

(أَوْلِيَاءَهُ ۚ)يحتمل أن الضمير يعود إلى اللّه أى:–أولياء اللّه.

و يحتمل أن يعود إلى المسجد الحرام أى: و ما كانوا أولى به من غيرهم.

(إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ)و هم الذين آمنوا باللّه و رسوله و أفردوا اللّه بالتوحيد و العبادة و أخلصوا له الدين.

(وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)فلذلك ادَّعَوْا لأنفسهم أمرا غيرهم أولى به.

*اللّه تعالى إنما جعل بيته الحرام ليقام فيه دينه و تخلص له فيه العبادة فالمؤمنون هم الذين قاموا بهذا الأمر

و أما هؤلاء المشركون الذين يصدون عنه (وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ)التي هى أكبر أنواع العبادات

(إِلَّا مُكَاءً ۚ)صفيرا(وَتَصْدِيَةً)تصفيقا فعل الجهلة الأغبياء (و يطوفون بالبيت عراة)

الذين ليس فى قلوبهم تعظيم لربهم و لا معرفة بحقوقه و لا احترام لأفضل البقاع و أشرفها فإذا كانت هذه صلاتهم فيه فكيف ببقية العبادات؟

*فبأى شيء كانوا أولى بهذا البيت من المؤمنين الذين هم فى صلاتهم خاشعون و الذين هم عن اللغو معرضون إلى آخر ما وصفهم اللّه به من الصفات الحميدة و الأفعال السديدة.

لا جرم أورثهم اللّه بيته الحرام و مكنهم منه و قال لهم بعد ما مكن لهم فيه

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا)

و قال هنا (فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ)يوم بدر من القتل و السبي(٣٥)

*يقول تعالى مبينا لعداوة المشركين و كيدهم و مكرهمو مبارزتهم للّه و لرسوله و سعيهم في إطفاء نوره و إخماد كلمته و أن وبال مكرهم سيعود عليهم و لا يحيق المكر السيئ إلا بأهله فقال:–

(إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ)

ليبطلوا الحق و ينصروا الباطل و يبطل توحيد الرحمن و يقوم دين عبادة الأوثان.

(فَسَيُنفِقُونَهَا)فسيصدرون هذه النفقة و تخف عليهم لتمسكهم بالباطلو شدة بغضهم للحق

(ثُمَّ)و لكنها س—(تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً)ندامة و خزيا و ذلا

(ثُمَّ يُغْلَبُونَ)و يغلبون فتذهب أموالهم و ما أملوا و يعذبون فى الآخرة أشد العذاب.و لهذا قال:–

(وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ)يجمعون إليها ليذوقوا عذابها و ذلك لأنها دار الخبث و الخبثاء(٣٦)

(لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ)الْكَافِر(مِنَ ٱلطَّيِّبِ)الْمُؤْمِنَ

و اللّه تعالى يريد أن يميز الخبيث من الطيب و يجعل كل واحدة على حدة و في دار تخصه

(وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ)من الأعمال و الأموال و الأشخاص.

وَ هَذَا يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا التَّمْيِيزُ فِي الْآخِرَةِ

*كقوله (وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ) يونس: ٢٨

*وَ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا التَّمْيِيزُ فِي الدُّنْيَا بِمَا يَظْهَرُ مِنْ أَعْمَالِهِمْ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ تَكُونُ "اللَّامُ" مُعَلِّلَةً لِمَا جَعَلَ اللَّهُ لِلْكُفَّارِ مِنْ مَالٍ يُنْفِقُونَ فِي الصَّدِّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَيْ:-إِنَّمَا أَقْدَرْنَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ

(لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ)أَيْ:-مَنْ يُطِيعُهُ بِقِتَالِ أَعْدَائِهِ الْكَافِرِينَ أَوْ يَعْصِيهِ بِالنُّكُولِ عَنْ ذَلِكَ

* كَمَا قَالَ{وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ166 وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ}[آلِ عِمْرَانَ]

*وَ قَالَ{مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ}[آلِ عِمْرَانَ: 179]وَ قَالَ تَعَالَى:{أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ}[آلِ عِمْرَانَ: 142]

وَ نَظِيرَتُهَا فِي بَرَاءَةَ أَيْضًا.
فَمَعْنَى الْآيَةِ عَلَى هَذَا: إِنَّمَا ابْتَلَيْنَاكُمْ بِالْكُفَّارِ يُقَاتِلُونَكُمْ وَ أَقْدَرْنَاهُمْ عَلَى إِنْفَاقِ الْأَمْوَالِ وَ بَذْلِهَا فِي ذَلِكَ لِيَتَمَيَّزَ الْخَبِيثُ مِنَ الطَّيِّبِ فَيُجْعَلَ الْخَبِيثُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ

(فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا)يَجْمَعَهُ كُلَّهُ وَ هُوَ جَمْعُ الشَّيْءِ بَعْضِهِ عَلَى بَعْضٍ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي السَّحَابِ:-

{ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا}[النُّور:43]أَيْ: مُتَرَاكِمًا مُتَرَاكِبًا

(فَيَجْعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٣٧)فِي الدُّنْيَا و خسروا أنفسهم و أهليهم وَ الْآخِرَةِ

*هذا من لطفه تعالى بعباده لا يمنعه كفر العباد و لا استمرارهم فى العناد من أن يدعوهم إلى طريق الرشاد و الهدى و ينهاهم عما يهلكهم من أسباب الغى و الردى فقال:-

(قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ)عن كفرهم و ذلك بالإسلام للّه وحده لا شريك له.

(يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ)منهم من الجرائم

*البخارى 6921عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ:-قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِﷺ أَنُؤَاخَذُ(نعاقب) بِمَا عَمِلْنَا فِي الجَاهِلِيَّةِ؟ قَالَ:«مَنْ أَحْسَنَ فِي الإِسْلاَمِ(استمر على دينه و ترك المعاصى)لَمْ يُؤَاخَذْ بِمَا عَمِلَ فِي الجَاهِلِيَّةِ وَ مَنْ أَسَاءَ(ارتد)فِي الإِسْلاَمِ أُخِذَ بِالأَوَّلِ(بما عمل حال الكفر)وَ الآخِرِ(ما اكتسبه من معصية بعد إسلامه)»

*مسلم121-قال النبي ﷺ لعمرو بن العاص:-
«أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ؟ وَ أَنَّ الْهِجْرَةَ تَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهَا؟ وَ أَنَّ الْحَجَّ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ؟»

(وَإِن يَعُودُواْ)إلى كفرهم و عنادهم

(فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ)بإهلاك الأمم المكذبة فلينتظروا ما حل بالمعاندين فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون فهذا خطابه للمكذبين ٣٨

*و أما خطابه للمؤمنين عندما أمرهم بمعاملة الكافرين فقال:-

(وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ)

شرك و صد عن سبيل اللّه و يذعنوا لأحكام الإسلام حتى لا يُفْتَن مسلم عن دينه

*البخارى4651 - عن سَعِيدِ بْنُ جُبَيْرٍ قَالَ:-خَرَجَ عَلَيْنَا-أَوْ إِلَيْنَا-ابْنُ عُمَرَفَقَالَ رَجُلٌ: كَيْفَ تَرَى فِي قِتَالِ الفِتْنَةِ؟ فَقَالَ: وَ هَلْ تَدْرِي مَا الفِتْنَةُ؟ «كَانَ مُحَمَّدٌ ﷺيُقَاتِلُ المُشْرِكِينَ وَ كَانَ الدُّخُولُ عَلَيْهِمْ فِتْنَةً وَ لَيْسَ كَقِتَالِكُمْ عَلَى المُلْكِ»(كأنه يقصد أن يقول ما يمنعك من القتال مع أن الله تعالى أمر به في تلك الآية)

(وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ)أن يقال الا اله الا الله

*البخارى 25 - عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺقَالَ:-
«أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ(أى بعد عرض الإسلام عليهم)حَتَّى يَشْهَدُوا(يعترفوا بكلمة التوحيد أى يسلموا أو يخضعوا لحكم الإسلام إن كانوا أهل كتاب يهودا أو نصارى.) أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَ يُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَ يُؤْتُوا الزَّكَاةَ فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا (حفظوا و حقنوا و العصمة الحفظ و المنع)مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَ أَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الإِسْلاَمِ

(إلا إذا فعلوا ما يستوجب عقوبة مالية أو بدنية في الإسلام فإنهم يؤاخذون بذلك قصاصا)وَ حِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ»(أى فيما يتعلق بسرائرهم وما يضمرون)

*فهذا المقصود من القتال و الجهاد لأعداء الدين أن يدفع شرهم عن الدين و أن يذب عن دين اللّه الذي خلق الخلق له حتى يكون هو العالى على سائر الأديان.

(فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ)عن ما هم عليه من الظلم

*بِقِتَالِكُمْ عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الْكُفْرِ فَكَفُّوا عَنْهُ وَ إِنْ لَمْ تَعْلَمُوا بَوَاطِنَهُمْ {فَإِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}

كَمَا قَالَ{فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[التَّوْبَةِ:5] و قال{فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ}[التَّوْبَةِ:11]

(فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ)لا تخفى عليه منهم خافية(٣٩)

(وَإِن تَوَلَّوۡاْ)عن الطاعة و أوضعوا فى الإضاعة وَ إِنِ اسْتَمَرُّوا عَلَى خِلَافِكُمْ وَ مُحَارَبَتِكُمْ

(فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ)سَيِّدُكُمْ وَ نَاصِرُكُمْ عَلَى أَعْدَائِكُمْ

(نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ)الذى يتولى عباده المؤمنين و يوصل إليهم مصالحهم و ييسر لهم منافعهم الدينية و الدنيوية.

(وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ)الذى ينصرهم فيدفع عنهم كيد الفجار و تكالب الأشرار.

و من كان اللّه مولاه و ناصره فلا خوف عليه و من كان اللّه عليه فلا عِزَّ له و لا قائمة له(٤٠)

....